

سلسلة روايات الجيب

الرجل المزيف

١ - ١١٧

A - 117

بلا عنوان

باربرا كارتلاند

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية:

LOVED FOR HIMSELF

ISBN 0-7493-1241-6

الفصل الأول

١٨١٨

نزل الماركيز أوف مونتيغل من عربته ثم قال لسائقه: «عد بعد ساعة.»

«حاضر يا سيدي اللورد.»

صعد الماركيز الدرجات داخلاً إلى النادي بينما حياه البواب بكل احترام.

دخل الغرفة الصباحية حيث وجد الرجل الذي كان يبحث عنه جالساً على أحد المقاعد الجلدية العميقة. وكان على وشك الاتجاه إليه عندما سمع رجلاً قريباً يقول بهمس واضح تماماً: «إسمع، هوذا مونتيغل. إياك أن تدعه يرى دفتر الملاحظات.»

فتجمد الماركيز بشكل غير إرادي.

ولكنه تمالك نفسه، وبشكل يدعو إلى الاعجاب، من أن ينظر إلى المتكلم. وبدلاً من ذلك، تعمد أن يخاطب شخصاً كان جالساً في الناحية الأخرى من الغرفة، والذي كان قد رآه حديثاً في ميدان الخيل: «هل فزت في المباراة.»

أجاب الرجل: «ليس لي مثل حظك لكي أفوز.»

ثم استدار الماركيز إلى اليمين فرأى الرجل الذي كان همس بتلك الكلمات.

وما لبث أن تابع سيره إلى حيث كان صديقه اللورد تشارلس كاريغنتون في انتظاره.

وقال هذا: «لقد تأخرت، يا جوني.»

فأجاب الماركيز: «لقد تأخرت بسبب كتابتي رسالة.»

فقال اللورد: «هل تسمح لي بأن أتكهن بثلاثة أسماء قد وجهت رسالتك إلى أحدهم.»

فقال الماركيز: «لا، وأهتم أنت بشؤونك الخاصة.»

فضحك اللورد ثم نادى الخادم وطلب منه إحضار القهوة. وعندما عاد هذا بطلبهما قال له الماركيز: «أحضر لي دفتر الملاحظات.»

«حاضر، يا سيدي.»

كان دفتر الملاحظات في النادي أشبه بالأسطورة حيث أنه قد بدأ العمل به منذ مئة عام.

وحين ابتعد الخادم لينفذ طلب الماركيز، قال اللورد تشارلس: «أظن من الأفضل ألا ترى ذلك الدفتر.»

فحدق الماركيز فيه قائلاً: «ماذا تعني بذلك؟»

«ربما ذلك سيسبب لك الاستياء، والمثل يقول: لا عين ترى ولا قلب يحزن.»

فقال الماركيزة بحدة: «لا أدري ما الذي تتحدث عنه. ولكنني سمعت بيرسيفال يقول هامساً عند دخولي: إسمع، هوذا مونتيغل. إياك أن تدعه يرى دفتر الملاحظات. ما الذي كان يقصد بهذا؟»

فأجاب اللورد تشارلس: «إنني أعرف ما الذي كان

يقصد. وكما سبق وقلت، لا تنظر في ذلك الدفتر عندما يأتونك به.»

فقال الماركيز بحدة: «أظنك جننت. طبعاً علي أن أطلع عليه حتى إذا وجدت في الأمر افتراء ما، فسأعرف كيف أوسع بيرسيفال ضرباً.»

فقال اللورد تشارلس: «لا أدري لماذا تهتم بما يقوله شخص مثل بيرسيفال. على كل حال، ما يهمني أكثر هو أن أتحدث إليك عن الخيل.»

وسكت لحظة، ثم عاد يقول: «لقد رأيت مؤخراً بعض الجياد الفاخرة التي تناسبك تماماً.»

فقال الماركيز: «أشكرك لاهتمامك هذا. ولكن الفضول يتملكني لرؤية ما يحويه دفتر الملاحظات ذاك.»

أبدى اللورد تشارلس بيده إشارة تفصح عن الملل وهو يقول: «لا بأس، إفعل ما يحلو لك، ولكنني دوماً أؤمن بذلك المثل الذي يقول: لا توقظ الكلاب النائمة.»

فقال الماركيز: «إنك كثير الاستشهاد بالأمثال اليوم، مما ينبىء بأنك منزعج لما قد أجده. فأنا أعرفك منذ كنا معاً في كلية إيتون، عندما تبدأ بالاستشهاد بالأمثال، فهي علامة نحس.»

ضحك اللورد تشارلس بشيء من الأسى، وقبل أن يجيب بشيء، كان الخادم يناول الماركيز كتاب الملاحظات.

كان القدم يبدو على الغلاف المهترىء قليلاً، ولكن عنوانه كان مكتوباً بأحرف مذهبة بكل وضوح.

النادي الأبيض

كتاب الملاحظات
١٧١٢

فتح الماركيز الدفتر، مجتازاً الصفحات القديمة التي امتلأت بالملاحظات المكتوبة بخطوط رديئة غير مقروءة، ليأتي إلى آخر ما كتب فيه.

كان هناك عدد منها من السنوات السابقة عندما كان هو وتشارلس يحاربان نابوليون.

ووقعت عيناه لحظة على ملاحظة كتبت في السنة التي وقعت فيها موقعة ووترلو الفاصلة.

الكابتن كيل يؤكد للسيد بروميل أن نابوليون لن يكون على رأس حكومة فرنسا وذلك بعد عشرة أيام من هذا التاريخ.

١٥ آذار ١٨١٥

جورج بروميل

ملاحظة أخرى كتبت بعد هذا بأربعة أيام وقعه أربعة أعضاء، هو السير تالبوت يؤكد للسيد و. هوارد أن بوتابرت لن يكون في فيينا بعد ثلاثة أشهر.

ج. تالبوت ١٧ آذار. ١٨١٥/ و. هوارد.

قلب الماركيز الصفحة حيث رأى عدة ملاحظات عن الرياضة.

ثم قرأ ببطء، اللورد بيرسيفال يؤكد للسيد هاتون بأن ماركيزاً معيناً لن يكون بإمكانه أن يقتطف زهرة قبل أن تصبح معلوماً ما إذا كان الدوق أوف د. سيعيش أم يموت.
٢٩ نيسان ١٨١٨

قرأ الماركيز الملاحظة مرتين قبل أن يقول: «إذا كان

هذا يعني ما فهمته، فهي شتيمة كبيرة، وسأطلبه للمبارزة.»

قال اللورد تشارلس: «إذا أنت فعلت ذلك، فستصبح أضحوكة.»

«لماذا؟ ماذا تعني بذلك؟»

ساد الصمت لحظة قبل أن يجيب اللورد تشارلس: «إسمع، يا جوني. إنك صديقي، وأنا لا أريد أن أحطم صداقتنا. إن كل ما أريد منك هو أن تدع الكتاب جانباً وتعتبر أنك لم تطلع على ما فيه.»

فسأله الماركيز بغضب: «ولماذا علي أن أفعل ذلك؟ من الواضح أن هذا يشير إلى فلور واسمها يعني الزهرة. ولا أدري ما علاقة الدوق أوف دورست بها؟»

فضغط اللورد تشارلس على شفتيه، ولم يقل شيئاً.

قال الماركيز: «هيا، يا تشارلس. مهما قلت لي، فلن أغضب منك، إنه ذلك القذر بيرسيفال الذي أكره، فهو كثير الثرثرة والغيبة. وإذا هو لم يحصل على قصة قذرة يرويها، فهو يؤلفها بنفسه.»

فقال اللورد تشارلس: «بالضبط، وهذا ما فعله الآن.»

ولسوء الحظ، كان يتكلم بسرعة زائدة ما جعل الماركيز يدرك أنه كاذب، فقال: «أخبرني بالحقيقة يا تشارلس.»

فتنهد اللورد تشارلس: «حسناً جداً. ولكن إذا أنت ظننت أنني سأقاتلك، فأنت مخطىء. لقد سبق وهزمتني مراراً.»

فقال الماركيز: «لا تكن أحمق. فأنا لن أقاتلك، وإنما بيرسيفال فقط.»

قال اللورد تشارلس بخضوع: «حسناً، إن الذي يتكلم عنه بيرسيفال هو الحقيقة لسوء الحظ.»

حدق الماركيز في صديقه ذاهلاً، ثم قال ببطء وكأنه يفكر في الأمر: «أتريد أن تقول إن فلور إنما تؤجل قبولها الزواج الذي عرضته عليها لأنه، إذا مات الدوق أوف دورست وأصبح ستينغتون هو الدوق،، فإنها ستقبل الزواج منه؟»

فقال اللورد تشارلس: «دوماً كانت فكرتي عنك أنك سريع الإدراك.»

هتف الماركيز: «لا أصدق هذا، فهي تحبني. لقد أخبرتني بذلك أكثر من مئة مرة، وهي فقط تبقي خطوبتنا سراً نظراً لمرض جدتها.»

قال اللورد تشارلس: «إن جدتها ما زالت مريضة، حسب علمي منذ ثلاث سنوات.»

حبس الماركيز أنفاسه وهو يقول: «ولكنك تعلم رأينا الدائم بذلك الرجل ستينغتون.»

تمتم اللورد تشارلس: «الدوق هو دوق.»

قال الماركيز: «الذي أريد أن أعرفه هو، من أين لبيرسيفال أن يعلم كل هذا؟ لم يحدث قط أن نطقت بكلمة واحدة عن شعوري نحو فلورد أو شعورها نحوي، وذلك لأي إنسان، ما عداك.»

فقال اللورد تشارلس بسرعة: «حسناً، لست أنا المذنب.»

«مذنب من إذن؟»

«ربما لن يعجبك ما أقول. ولكن خادم بيرسيفال يتكلم مع خادمة فلور.»

«أتعني أن المرأة قد أخبرت الرجل بالسر الذي أقسمت سيدتها عليها بكتمانه؟»

فقال اللورد تشارلس: «إن الخدم يتكلمون، يا عزيزي جوني. وفي الواقع، إن كل الشائعات التي تنتشر في المجتمع إنما تأتي من أفواه الخدم.»

هتف الماركيز: «لم يخطر هذا ببالي قط.»

«إن هذا يحدث طبعاً. من تظنه فضح تورط هنري مع تلك القبرصية الصغيرة الجشعة، ما كاد معه يخسر الثروة التي تركها له عمه؟»

فقال الماركيز: «لقد حيرني، في ذلك الوقت، إفتضاح ذلك الأمر.»

«إن الخدم هم الخدم. وبما أن خادمه هو ثرثار معروف، فأظن أن كل شخص في هذه الغرفة قد أصبح يعرف الآن ما بينك وبين فلور.»

شد الماركيز قبضتيه لحظة، ما لبث بعدها أن استطاع بجهد، أن يجلس متظاهراً بالارتياح.

لقد جذبته فلور مونرو كما لم تجذبه فتاة من قبل. وكان قد سبق وأقسم من قبل، أنه لا ينوي الزواج قبل أن يبلغ الأربعين من عمره تقريباً. ذلك انه كان رجلاً عابثاً يتسلى مع هذه وتلك.

وعندما قابل فلور مونرو، تخلى عن كل تعهداته وعرض عليها الزواج بشفتين مرتجفتين بعد ثلاثة أسابيع من تعارفهما.

وكانت فلور في التاسعة عشرة من عمرها، وكانت في حداد على أبيها.

كانت جميلة. وكانت ثروتها الكبيرة التي كانت ورثتها، غير مهمة بالنسبة إلى الماركيز ورجال غيره. وحالما تقابلا، شعر الماركيز برابط يشدهما معاً.

أعجبا ببعضهما كثيراً.

ولكن فلور أكدت عليه أن السرية في هذا الأمر هي ضرورية جداً، وأنه يجب ألاّ يعلم أحد بعلاقتهما إلا بعد أن ينتهي آخر يوم من حدادها.

قالت له في صوت خافت: «إنك تعلم كم سيكون ذهول كل إنسان إذا أنا أعلنت خطبتنا قبل أن ينتهي آخر يوم من فترة حدادي، فأخلع السواد وأبدأ بارتداء الثياب الملونة.»

وقد تفهّم الماركيز الأمر تماماً.

إنما كل ما في الأمر أنها جاءت إلى لندن بسرعة أكبر مما كان متوقعاً، وذلك لكي تستطيع تقديم نفسها في قصر الملكة حسب التقاليد.

وكان تغيير الموعد بمثابة إهانة للوصي على العرش.

ولهذا، أصرت فلور على أن يتصرف الماركيز نحوها في المجتمعات بشكل عادي تماماً.

وكان أمراً جديداً، بالنسبة إلى الماركيز، أن يجد امرأة لا تتباهى بين الناس بفوزها به منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناه عليها.

قال لها منذ يومين فقط: «لقد مللت من كل هذه السرية. إنني أحبك، يا عزيزتي، وأريد من كل العالم أن يعرفوا أنك لي.»

فقالت بنعومة: «وأنا أحبك. فأنت بالغ الذكاء

وأفضل من كل الرجال الذين تقدموا لي بطلب الزواج.»

قال الماركيز: «ليس مسموحاً لك، في المستقبل، أن تري أحداً. إنني أشعر بالجنون حين أراك في الحفلات تجلسين وحولك كل أولئك المعجبون. إذا ما علمت يوماً أنك تستمعين إلى كلمات اعجاب منهم، فسأطلق الرصاص على رؤوسهم.»

فتمتمت: «آه، يا جوني، لشد ما أنت مستبد. ولكنك تعلم، إذا كنت سأصبح زوجتك، فمن الخطأ الكبير أن أتعرض لانتقاد الناس.» تنهدت وهي تتابع: «إنني خائفة من أن يشعر البعض بالغيرة.»

فقال ما هو متوقع منه: «إنك طبعاً ستتعرضين لغيرة النساء لجمالك الرائع هذا.»

وعندما تركها لأنها قالت إن عليها أن تجهز نفسها لحضور حفلة عشاء، كانت عيناها تلتمعان. وبدت له من الجمال بحيث شعر انه من الصعب أن يتمكن من الابتعاد عنها.

قالت له هامسة: «أريدك أن تكون بالغ الحذر، فمن الخطأ البالغ أن يتحدث الناس عني.»

«يمكنك أن تثق بي.»

ثم اجتاز الحديقة بسرعة، ليخرج بعد ذلك من باب عند الاصطبلات مستعملاً مفتاحاً قد أعطته له فلور.

ولم يتذكر أنه نسي أن يسألها عن أية حفلة عشاء كانت هي ذاهبة إليها، لم يتذكر ذلك إلا بعد أن وصل إلى منزله في بيركلي سكواير.

وكان قد اعتذر عن تلبية خمس دعوات على الأقل كان سكرتيره قد وضعها على مكتبه ليجبره على الاطلاع عليها.

ولكنه، على كل حال، كان رأى فلور في حفلتين أثناء الأسبوع الماضي.

والآن، وتفكيره يعود إلى تينك الحفلتين، تذكر أنها كانت تلازم دوماً الإيرل أوف ستينفتون وريث الدوق أوف دورست.

وكان هذا فتى عادياً كان هو قد رآه في حفلة سباق الخيل. ولم يتقبله، لا هو ولا صديقه تشارلس، صديقاً لهما. ولم يخطر له قط، ولو للحظة واحدة، أنه سيكون منافسه عند فلور.

لقد كان يعلم أن هناك عدداً من الشبان كانوا يلاحقونها. ولكن لم يكن لهم مركزه الاجتماعي، أو ثروته، ولا شهرته كرجل رياضي.

وكان واثقاً تماماً من أنهم لا يشكلون عليه أي خطر، ولكن، ها هوذا بيرسيفال من بين كل الرجال، يعلم عنه وعن فلور.

والأكثر من ذلك هو أن فلور كانت تتطلع إلى لقب أكبر من لقبه.

كل هذا مرّ في ذهن الماركيز بينما كان يرى صديقه ينظر إليه متوجساً.

قال: «مهما كان شعورك نحو هذا الأمر، يا جوني، فليس في إمكانك إظهار الغضب في هذا المكان.»

أجاب: «ليس في نيتي ذلك. ولكنني أريد أن أعلم

الحقيقة. الحقيقة كلها يا تشارلس، حتى ولو اقتضاني الأمر أن أستخرجها منك بالرغم عنك.»

فقال اللورد تشارلس وقد بان عليه الألم: «كنت أعلم أنك ستشعر بالغضب.»

فقال الماركيز: «إنني غاضب طبعاً. وأريد منك أن تطمئنني إلى أن هذا غير صحيح.»

فقال اللورد: «إن هذا أمر لا أستطيعه.»

«أتعني... أن هذا صحيح؟»

«هذا ما أعرفه.»

«وكيف أمكنك أن تتأكد من ذلك؟»

كان الماركيز يتملكه شعور الغريق الذي يتعلق بقشة لكي تنقذه.

لم يكن يستطيع أن يصدق أن فلور كانت تخدعه، كان هذا صعباً عليه.

كيف أمكنها الإدعاء بأنها تحبه بذلك الشكل الذي يجعلها تخاطر لمقابلته؟

قال له اللورد تشارلس وكأنما كان يقرأ أفكاره: «إن ما سمعته هو أن فلور تحبك، ولم تهتم بأي شخص سواك، ولكنها لا تستطيع أن تقاوم الحظ في أن تصبح دوقة.»

فسأله الماركيز: «وكيف تعرف كل هذا؟»

فتردد اللورد تشارلس لحظة، ثم قال: «الواقع أن رئيس خدم أمي هو عم خادم بيرسيفال الخاص.»

فهتف الماركيز: «أوه، أهو المزيد من أقاويل الخدم؟»

أجاب اللورد: «إنك تعلم مثلي أن الخدم في العائلات وأقاربهم، حتى أحفادهم أيضاً، يجدون لهم مكاناً في تلك العائلات. ومع أنه قد لا يعجبك بيرسيفال، فإن شجرة عائلته باتساع شجرة عائلتك.»

قال الماركيز: «لطالما سمعت بأن الخدم هم أسوأ المتطفلين في العالم، ولكنني لم أكن أصدق ذلك.»

أجاب اللورد: «ذلك لأنك لم تكن تعيّنهم بنفسك. ولكن بإمكان سكرتيرك أن يخبرك بمبلغ العناية التي يتفحص بها شهادات الخدم الذين يعيِّنهم حديثاً، وذلك قبل أن يتجاوزوا عتبة بيتك.»

وعندما رأى اللورد أن الماركيز يستمع إليه، تابع يقول: «إن المستخدمين عندك هم غالباً من القرويين في أملاكك من الذين اعتادوا منذ أن كانوا في الثانية عشرة، على النظر إليك برهبة وإعجاب.»

فقال الماركيز: «إخرس.»

ولكنه كان يعلم أن كلام صديقه هو منطقي.

فهو يرى الآن، لدى إعمال ذهنه، أن نفس الأسر قد استحلت وظائف في قصره منذ أجيال.

وتذكر كيف كان أبوه يأخذه، وهو صبي صغير، إلى مختلف الأقسام في أملاكه، فهناك النجارون والبناؤن والحطابون والدهانون.

وكان عدد المستخدمين في داخل القصر، وما زالوا، فوق الخمسين.

قال له والده في ذلك الحين: «ترى أننا دولة داخل دولة. وعليك يا جوني أن تتذكر دوماً بأنهم شعبك وعليك أن

تعتني بهم، وأن ترعاهم وتمنعهم قدر إمكانك من اقتراف الأخطاء.»

ومنذ ورث الأملاك، حاول دوماً أن ينفذ وصية أبيه تلك. لقد كان، كما وصفه القائد ويلنغتون مرة، قائداً لامعاً. فقد كان يرعى جنوده ويعتني بهم بنفس الطريقة التي كان يرعى بها حراسه وعمال حدائقه وسائسيه.

ولكنه الآن قد خطر بباله بأنهم ربما يخوضون في سيرته وشؤونه كما يفعل خادم بيرسيفال.

ثم قال: «إن ما يغضبني هو أنني أثق بخدمي على الدوام. لم يخطر ببالي قط أن ما أقوله، أثناء تناول الطعام أو ارتدائي ملابسي، سيردده خادمي في الخارج.»

فقال اللورد تشارلس: «إنك ساذج نوعاً ما. فهم يتكلمون بالطبع، دون أن يروا في ذلك ما يناقض وفاءهم لك، إذا هم تحدثوا مع إخوتهم أو أخواتهم أو أولاد أعمامهم وأخوالهم أو أي من أبناء بلدتهم إذا كانوا من الأسرة.»

«حسناً، كل ما بإمكاني قوله هو أنه إذا استمرّ هذا، فمن الصعب عليّ أن احتفظ بأي سرّ وطني.»

ضحك اللورد تشارلس: «يجب أن تنتبه، يا جوني إلى أن نابوليون كان لديه مخبرين في كل مكان. فكان يعرف منهم من شؤون الامبراطورية أكثر كثيراً مما كان يعلم ذلك من مكاتب مختلف الوزارات.»

فسأله الماركيز: «هل هذا صحيح حقاً؟»

فأجابه صديقه: «كان أحد الخدم في قصر ولي العهد مخبراً. وقد اكتشف أمره في النهاية، ولكن بعد أن علم

نابوليون أشياء كثيرة من الأحاديث الحمقاء التي كان يخوض فيها ضيوف القصر.»

هتف الماركيز: «ولكن هذا فظيع.»

فقال اللورد تشارلس: «إنني واثق من أن معارك كثيرة كانت خاسرة، كما أن جنوداً كثيرين قتلوا وذلك بسبب أحاديث كانت تدور بحضور الخدم، وذلك باستهتار ودون تحفظ.»

لم يجب الماركيز، وبعد لحظات تابع هذا يقول: «إعتاد أبي أن يقول إن الناس يفترضون في خدمهم الصمم والبكم، ولكن من الغريب أنهم بشر عاديون كغيرهم.»

فقال الماركيز: «كنت أفكر في تلك الأحاديث التي كانت تدور في قصري في بريكلي سكواير والتي كان المفروض ألا يسمعها سواي وبعض من الضيوف الموثوق بهم.»

فقال اللورد تشارلس: «ولكن رئيس الخدم والخادم عندك، واللذين يقفان عادة في غرفة الطعام لتلبية الطلبات، يسرهما ما يسمعان.»

هتف الماركيز: «لا أصدقك. إن هذا من اختراعك.»

فأجاب صديقه: «أتمنى لو كان هذا صحيحاً، ولكن الحقيقة هي أنه، بالنسبة إلى ما يقول بيرسيفال، إن فلور ستقبل الزواج منك إذا استجمع الدوق قواه وعاش عدة سنوات أخرى.»

تحرك الماركيز في كرسيه وقال: «سأذهب إليها، وأعلم منها الحقيقة.»

فقال اللورد تشارلس: «إنها طبعاً ستنكر ذلك. ستنكره

بكل تأكيد، ولكن بصراحة أقول لك يا جوني إن ذلك لن ينفعك وإنما سيزيد من ألمك هذا.»

فقال الماركيز بحدة: «إنني طبعاً متألم. ولكن علي أن أفكر في الأمر بتعقل.»

نظر إليه صديقه بعطف، ولم يقل شيئاً إلى أن قال له الماركيز بلهجة مختلفة: «ما الذي علي أن أفعل، يا تشارلس؟ إنك تعلم أنه إذا تعافى الدوق وتزوجتني فلور، فلن أثق بها قط بعد ذلك وأظنني سأكرهها لتحطيمها مثلي العليا.»

أجاب اللورد: «أظنك تريد أن تقول إنك تريد أن تكون محبوباً لذاتك، وليس لثروتك أو لقبك.»

فقال الماركيز: «هذا ما أريده طبعاً. أتظن أنني لم أكن أعلم أن كل أم طموح لديها فتاة في سن الزواج، تترصدني منذ سنوات؟»

وسكت قليلاً، ثم عاد يقول: «عندما أفكر في الطريقة التي يعرضن فيها أمامي كالفتيات الفتية في أسواق الربيع، لا أستطيع التفكير كيف أمكن أن أتعرض إلى مثل هذا الخداع.»

فقال صديقه بعطف: «إن لديك كل العذر. ذلك أن فلور جميلة جداً، وكذلك ماهرة جداً.»

فقال الماركيز بمرارة: «إنها من المهارة بحيث تمكنت من خداعي، لقد صدقتها... صدقتها حقاً يا تشارلس.»

فقال تشارلس: «عليك أن تواجه الواقع، وهو أن من الصعب على أية امرأة أن تراك من دون تاجك المتألق، وأشعة الشمس التي تلتمع على زجاج المئات من نوافذ قصرك.»

فسأله الماركيز: «هل أنت جاد في قولك من أنني لن أجد فتاة أبداً تحبني لذاتي؟»

فأجاب اللورد: «إنهن سيحببنك حقاً، ولديك برهان كاف على ذلك. ولكن الذي تريد أن تعلمه حقاً هو ما إذا كن يقبلن بالزواج منك لو كنت رجلاً عادياً ليس لديك سوى شكلك وشخصيتك.»

ففكر الماركيز لحظة، ثم قال: «نعم، هذا صحيح. وأظن أن هذا ما يريده كل رجل. وهو أن تحبه المرأة لشخصيته كرجل وليس لأي شيء آخر.»

فابتسم اللورد تشارلس: «لماذا لا تجرب؟»

«ماذا تعني بذلك؟»

«لماذا لا ترى شكل العالم لو أنك كنت رجلاً عادياً ولست الماركيز أوف مونتيفل؟ إسمع يا جوني. إنني سأجعل هذا تحدياً بيننا.»

وفكر قليلاً، ثم عاد يقول: «سأتحداك بجوادي «الصقر الفضي» الذي يثير إعجابك، ضد حصانك الفحل العاصفة، بأنك لن تستطيع أن تحتمل كونك رجلاً عادياً مدة أسبوعين كاملين، لأنك ستفضل حياتك الحالية.»

قال الماركيز: «ما هذا، يا تشارلس؟ إن هذا لا يستحق هذا التحدي. إن بإمكاني طبعاً أن أعيش رجلاً عادياً. لقد سبق وعانينا، أنا وأنت الكثير من المشاق عندما كنا في الجيش.»

فقال اللورد تشارلس: «ولكنك كنت هناك في مركز القيادة، وكنت تعطي الأوامر، ومحط إعجاب رجالك، وأيضاً قوادك.»

أجاب: «حسناً، إلى أي حد من المعاناة أكثر من ذلك، تريد أن توقعني به؟»

فكر اللورد تشارلس برهة، قبل أن يقول: «لقد اعترفت لتوك بأنك لا تدري شيئاً عن الخدم. ماذا لو أصبحت خادماً لمدة أسبوعين شرط ألاّ تُصرف من الخدمة لعدم الكفاءة.»

فقال الماركيز: «كيف تجرؤ على القول بأنني قد أصرف من الخدمة لعدم كفاءتي؟ إن حياة الخادم ليست بتلك الصعوبة.»

رد اللورد قائلاً: «إنك تقول هذا لأنه لم يسبق لك ان كنت خادماً مرة، ولا يمكنني أن أتصورك تنظف الفضيات بنفس مهارة مولينز.»

وكان مولينز رئيس خدم الماركيز في قصره وكان جميع أصدقائه يعرفونه.

فقال الماركيز: «إذا كان علي أن أكون خادماً، فأنا أفضل عملاً له علاقة بالخيل. على الأقل، لن يجد أحد بي عيباً معهم.»

فقال اللورد تشارلس: «هذا صحيح، وهذا يمنحك راحة غير عادلة، ولكنني سأسمح لك بأن تكون حوذياً.»

فقال الماركيز: «لا بأس في هذا. لقد أعجبت دوماً بحصانك الصقر الذهبي وسيسرني تماماً وضعه في اصطبلاتي.»

فقال اللورد تشارلس: «هذا مديح لنفسك. أما أنا فسأمتطي صهوة حصانك، العاصفة، بسرور بالغ.»

ضحك الاثنان.

وقال الماركيز: «لا أظنك جاداً؟»

فسأله اللورد: «ولم لا؟ وبعد، إذا كنت تريد من فلور أن تعرف شعورك، ويكون عليك أن تعترف بأنك علمت الحقيقة من أفواه الخدم، فذلك سيضعك في مصاف بيرسيفال.»

أجاب الماركيز: «إنها آخر إهانة، وهو شيء لا أنوي القيام به.» وأطلق ضحكة جافة: «هل يمكنك أن تتصور كيف سيستمتع الثرثارون بقصتنا هذه؟ لن يمكننا مطلقاً أن نمحو هذه من أذهانهم.»

فوافقه اللورد على ذلك بقوله: «هذا صحيح. وأنا أعدك، يا جوني، بألاّ أنطق بكلمة بخصوص هذا.»

قال الماركيز: «ولا أنا. والآن، لقد جعلتني غير قادر على النظر إلى خادم مرة أخرى دون أن أظنه مُخبراً.»

قال اللورد: «هذا يمنحك فرصة تعرف فيها كيف يعيش النصف الآخر.»

وكان، في الواقع، رغم أنه لم يكن يريده أن يعلم بذلك، كان يشعر براحة كبرى لأن الماركيز لم يتقبل موضوع حقيقة فلور مونرو بشكل أكثر عنفاً.

فقد كان الماركيز غارقاً في الحب بشكل لم يعرفه فيه من قبل، ولهذا، فقد كان خائفاً من أن يتخلى عن فطنته وحذره، ويدعو بيرسيفال للمبارزة، ويسبب بذلك فضيحة تنتشر في لندن بأجمعها.

ولشجاعته هذه، أثناء الحرب، فقد أخذ الدوق أوف ويلنغتون يمدحه في كل مناسبة.

ولهذا، كان الماركيز محط إعجاب عدد كبير من الناس المحترمين في لندن.

ولكنه فقط، كان محط حسد أولئك الذين لم يستطيعوا أن ينافسوه في مكانته هذه.

لقد كان اللورد تشارلس يشك دوماً في أن فلور مونرو بتلك الصفات الرائعة حقاً، إلى أن أدركه الذعر عندما علم أنها تقابل الإيرل أوف ستينغتون بنفس الطريقة التي تقابل بها الماركيز.

وكان أول ما خطر له أن يكشف أمر خداعها هذا لصديقه.

وها قد أدرك، على كل حال، أن ألم الماركيز كان بالغاً.

ولكن شفاءه مما سيدعوه دوماً (غدر النساء)، لن يأخذ وقتاً طويلاً.

وأفضل ما يمكنه أن يفعل، في هذه الحالة، هو الرحيل بعيداً.

وإذا بفكرة تمثيل دور الخادم تخطر لهما فجأة.

لقد كان اللورد تشارلس واثقاً من أن هذا سيبعد أفكاره فترة عن تلك الفتاة الخادعة.

وربما، في الوقت نفسه، سيمنحه ذلك نظرة جديدة إلى حياة أولئك الذين لا يعيشون الحياة المريحة التي يعيشها.

ذلك أن الماركيز كان يملك كل شيء، وبالتالي كان يجد من الصعوبة البالغة، حسب رأي اللورد تشارلس، أن يفهم أن الناس الآخرين يتألمون في حياتهم بمئة طريقة مختلفة.

تلك الطرق التي لا يعلم عنها شيئاً.

وكان هو معجباً بالماركيز منذ كانا معاً في كلية إيتون.

فهو قد تفوق في كل أنواع الرياضة، كما أنه قد ربح الكثير من الجوائز الثقافية كذلك، ما جعل البعض يرى ذلك أمراً غير عادل.

وكان اللورد تشارلس يحدث نفسه بأن الماركيز لم يولد وفي فمه ملعقة من ذهب، كما يقولون، وإنما ملعقة مرصعة بالأحجار الثمينة.

وأخيراً قال: «والآن، دعنا نخطط لهذا الأمر، يا جوني. وأول شيء، كما لا بد تعلم، هو أن نجد لك عملاً. ولهذا علينا أن نزيف لك شهادات عمل وحسن سلوك.»

وبدا البشر على وجه الماركيز المكتئب، وقال: «سنخطط لكل شيء وكأننا نخطط لمعركة.»

فقال اللورد تشارلس يذكره: «لقد كنت دوماً تحب مثل هذه الأشياء.»

فقال الماركيز: «أظنني سأجد متعة في هذا الأمر، وذلك على نحو ما. ولكن ينبغي ألاّ يكون في تنكري أي مجال للخطأ. هل تذكر، يا تشارلس، كيف كنت ممثلاً جيداً في كلية إيتون؟ لا يمكنك أن تنسى مسرحيات شكسبير التي كنا نمثلها؟ لقد كنت أنا رائعاً في دور تشايلوك.»

قال اللورد: «أظن أنك كنت أروع في دور بوتوم في تمثيلية حلم ليلة صيف.»

فقال الماركيز: «فلندع هذا كله، ولنتصافح على اتفاقنا هذا.»

فقال اللورد تشارلس: «تحية إلى أكثر السائقين وسامة، من الذين يقودون عربة ذات أربعة جياد.»

فقال الماركيز: «إنني أفضل أن أوصف بأكثر السائقين الذين أمسكوا باللجام، كفاءة.»

وما لبث أن أخذ يسأل نفسه أيّ تهور جعله يتورط في مأزق أحمق كهذا.

الفصل الثاني

جلس الماركيز في منزله يضع خطة لما عليه أن يقوم به. أدرك أن الحق مع تشارلس حين فكر في أن عليه أن يغادر لندن.

ذلك ان من الخطأ أن يقابل فلور. لأن قلبه، في نفس الوقت الذي أصبح يكرهها فيه، مازال يتوق إليها.

فقد كانت بالغة النعومة والجمال، والخضوع، ولم يكن يستطيع أن يصدق أن وراء ذلك المظهر الجميل الرقيق، امرأة خداعة داهية تضع المشاريع لتسلق المجتمع.

ولم يستطع أن يجلس هادئاً في مكانه، فنهض يتمشى في مكتبه الذي كانت جدرانه مبطنة بالكتب، فقد كان في الواقع قارئاً نهماً، رغم أن هذا قد يدهش الذين يعرفونه.

وكان يشعر بدافع يدفعه إلى السفر إلى الخارج ليزور الأماكن البعيدة التي لم يرها مطلقاً.

ولكنه ما لبث ان فكر في أنه لا ينوي أن يدع تشارلس يظفر بحصانه العاصفة.

لقد حدث نفسه قائلاً: سأظفر أولاً بحصانه الصقر الفضي، وإذا وجدت بعد ذلك أن ليس بإمكاني مواجهة فلور، فسأذهب لاكتشاف بقاع العالم التي طالما قرأت عنها.

ثم جلس إلى مكتبه، وقرع الجرس، فجاء خادم في الحال.

قال له الماركيز: «أريد رؤية وولترز.»

«حاضر يا سيدي.»

وكان وولترز هو الحوذي الخاص به في لندن، وكان شاباً بالمقارنة مع رئيس الحوذية في قصره في الأرياف، والذي يعمل في الاسطبلات منذ اثنين وثلاثين عاماً.

وأخذ يقرع مكتبه باصابعه أثناء الانتظار، ولكن عقله كان يعمل كشأنه عندما كان يضع الخطط لقواته ضد قوات نابوليون المتفوقة.

فقد بلغ من نجاحه في الحرب أن أدهش نفسه كما أدهش رؤساءه.

ولكنه، في ذلك الحين، كان يعرف من هو عدوه، وطبعاً، لم يكن ذا وجه جميل ولسان كاذب وعينين واسعتين تخفيان الحقيقة.

وما لبث الباب أن قرع، ليفتح بعد ذلك ويبرز منه الخادم معلناً: «السيد وولترز، يا سيدي.» ودخل الحوذي الغرفة.

نظر إليه الماركيز بشكل يختلف عما اعتاده.

كان الحوذي رجلاً طويل القامة، يكاد يماثله طولاً، ورغم ان ملامحه كانت خشنة فظة نوعاً ما، فقد كان جميل المنظر دون شك.

وقف عند العتبة باحترام، إلى أن قال الماركيز: «لقد أردت رؤيتك، يا وولترز.»

«نعم يا سيدي.»

فقال: «إقترب مني لأن ما سأقوله لك هو سري للغاية.»

اقترب وولترز إلى ان اصبح قبالة المكتب، فابتدأ الماركيز يقول ببطء: «ان احد اصدقائي اتفق مع صديق آخر بأنه سيسوق عربة بأربعة جياد حيث أن له خبرة بذلك، وذلك بصفة حوذي عادي ولمدة اسبوعين فقط ودون ان يعلم احد بأنه في الحقيقة من النبلاء.»

كان وولترز يستمع صامتاً، ولكن الماركيز رأى في عينيه نظرة ادراك، وتابع يقول: «أما ما أريده منك لمساعدة صديقي، فهو أن تجد له وظيفة حوذي.»

فسأله وولترز: «وكيف بإمكاني ذلك؟»

فأجاب الماركيز: «هذا ليس صعباً، اظنك تعرف اسطبلاً لتأجير الخيل والعربات أو وكالة لتقديم الخدم؟»

«نعم، اعرف ذلك يا سيدي، وهذا في شارع مونت، وقد كنا استأجرنا منهم سائقاً لفترة مؤقتة وذلك عندما رفس احد الجياد، بيل.»

فقال الماركيز: «إني اذكر ذلك، رغم انني لم يكن لدي فكرة عن المكان الذي أحضرتم منه ذلك الرجل.»

فقال وولترز: «انه لم يكن رديئاً، وأظن ان السيد باريت كان اعطاه شهادة خدمة جيدة حين صرفه.»

وكان السيد باريت سكرتير الماركيز، ولكن هذا لم يشأ أن يطلعه على سرية الأمر. ذلك أن السكرتير كان حاد الذكاء وربما يدرك أن الماركيز مشترك بهذا الأمر.

قال الماركيز: «ان ما اقوله لك الآن هو سري للغاية. وأنا واثق من انك لن تخبر احداً، وأعني

بهذا لا احد، ما ساطلب منك ان تقوم به لأجل صديقي.»

فأجاب وولترز: «لن أخبر أحداً، يا سيدي. ولكنني لا ادري ما الذي تريده مني سيادتك أن أقوم به.»

عند ذلك أخذ الماركيز يشرح له بهدوء وبطء لكي لا يكون هناك مجال للخطأ.

كان على وولترز أن يذهب إلى الوكالة ويطلب وظيفة لنفسه، قال له: «انك ستوضح لهم انك الحوذي الثاني لي، وان الحوذي الأول ما زال شاباً يمكنه أن يسوق جيادي لمدة طويلة.»

وسكت لحظة، ثم عاد يقول: «ولهذا، تريد أنت ان تكون حوذياً وهو ما تشعر انت ان خبرتك تؤهلك له.»

فقال وولترز: «لقد فهمت، يا سيدي. ولكنني إذا انا بحثت عن وظيفة أخرى، فإن الناس سيظنون انك استغنيت عن خدماتي.»

فقال الماركيز: «انهم لن يظنوا ذلك، لأنك لن تستعمل اسمك.»

فسأله بدهشة: «لن استعمل اسمي؟»

فأجاب الماركيز: كلا بالطبع، ثم انك لم تذهب قط إلى الوكالة من قبل، إذ حسب ما تذكر انت، انك كنت في خدمتي منذ كنت غلام اسطبل، ثم سائساً، واخيراً حوذياً درجة ثانية، وهكذا ليس من المحتمل أن يعرفوك.»

«كلا، بالطبع، يا سيدي.» وبدا على ملامحه البشر، وهو يتابع قائلاً: «أي اسم ساعطيهم، يا سيدي؟»

فأجاب الماركيز: «كنت افكر في اسم، ويجب ان يكون اسماً سهلاً، ما رأيك باسم جون ليون؟»

فارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وهو يقول: «يبدو لي اسماً لا بأس به.»

وقد تعمد الماركيز ان يضع اسمه الأول لكي يمكنه الإستجابة بسرعة إذا ما نودي به، وأيضاً فكر في أنه قد يعطي اسمه لمن يسأله عنه دون وعي منه لذلك، وما أن يصل إلى اسمه العائلي حتى يكون قد تنكر تنكره.

لقد حاول ان يتذكر كل ما يمكن أن يقع فيه من أخطاء.

وقد لاحظ أن وولترز كان بطيئاً، وكان يفكر قبل أن يقول شيئاً، فحدث نفسه قائلاً: علي أن اتصرف مثله. ثم قال له: «يجب ان تقوم بهذا العمل يا وولترز، الآن، بعد ظهر هذا اليوم، وعليك ان تتأكد من أن احداً في المنزل أو الإسطبلات لن يعلم بما سيحدث.»

فأجاب وولترز: «إنني احياناً أخرج وحدي للنزهة إذا لم يكن لدي عمل لحضرتك.»

فقال الماركيز: «ليس لدي طلبات قبل هذا المساء، فاذهب، إذن، حالاً وانظر ماذا يمكنك ان تفعله لأجلي.»

وفجأة، اخذ يتساءل عما عليه ان يفعل إذا هو لم يجد وظيفة شاغرة.

سحب ورقة كتابة مزخرفة وضعها امامه، ثم ابتدأ يكتب شهادة خدمة لجون ليون.

كتب أن هذا الرجل أمضى في خدمته سنتين، ثم تابع: (إنه رجل ممتاز بالغ النزاهة، ولا أتردد في الشهادة له والنصح بإعطائه مركزاً افضل من الذي يحتله حالياً.»

ووقع باسمه، ثم ناولها لوولترز.

ولكنه رأى من الطريقة التي نظر فيها وولترز إليها أنه لا يستطيع القراءة. عند ذلك مد يده يستعيدها منه، قائلاً: «سأقرأ لك ما كتبته. وأريدك ان تعلم انك إذا أردت يوماً أن تترك خدمتي، فسأكتب لك شهادة افضل من هذه.»

فقال وولترز ضاحكاً: «لن افعل ذلك، يا سيدي، لن اتركك إلا بعد أن اصبح من كبر السن بحيث لا أرى الطريق الذي أمامي.»

فقال الماركيز باسماً: «وفي ذلك الحين، ساكون أنا من كبر السن بحيث لا استطيع كتابة شهادة لك. كم تبلغ من السن؟»

«خمس وثلاثون سنة، يا سيدي.»

ولما كان الماركيز أصغر منه بثلاث سنوات، فقد رأى أنه أحسن الاختيار بجعله وولترز يمثله. ثم أرسل الرجل في تلك المهمة بعد أن أعطاه التعليمات التي عليه اتباعها أثناء عودته.

كان عليه أن يطلب مقابلته ليخبره عن أمر يخص أحد الجياد.

ذلك لأنه كان يعلم ان مستخدمي القصر سيستغربون مقابلته لوولترز دون سبب ظاهر.

وقال الرجل: «ساتذكر ذلك، يا سيدي.» ثم ترك المكتب مغلقاً الباب خلفه.

عند ذلك تملك الماركيز القلق من أن يكون رئيس الخدم أو أي من الخدم قد انصتوا من خلف الباب.

لم تكن مثل هذه الفكرة لتخطر له من قبل، ما جعله يشعر بالإنزعاج لاضطراره إلى ذلك من الآن فصاعداً.

وحدث نفسه غاضباً بأن شعوره نحو خدمه لن يعود كما كان أبداً.

لقد كان دوماً بالغ الزهو بكفاءة خدمه، وكيف ان شؤون منازله تسير بكل هدوء وسهولة.

وكان يعلم أن معظم هذا هو بفضل سكرتيره باريت، ولكنه أيضاً، كما سبق وقال تشارلس، لأن جميع مستخدميه هم من أسر تولت خدمتهم جيلاً بعد جيل.

فأن يكون الفتى منهم خادماً في القصر، هو وضع يدعو إلى الزهو. وهو مطمح كل غلام يبلغ الثانية عشرة من عمره.

كما ان الفتيات كن يرغبن في أن يكن خادمات وعندما لا يجدن وظيفة شاغرة في القصر، كن يسترسلن في النحيب نادبات سوء حظهن.

وبعد نلك، يكون عليهن ان يبحثن عن عمل في مكان آخر في الريف أو في لندن، وهو الأسوأ.

ولم يكن قد مضى على خروج وولترز سوى عدة لحظات، عندما فتح الماركيز باب مكتبه، ونظر إلى الخادمين الواقفين في الردهة ليرى ما إذا كانا يتهامسان ما ينبيء عن انهما يتحدثان عما قد يكونا سبق وسمعاه من حديثه مع الحوذي وهما يسترقان السمع، وعلى كل حال، فقد كان سره سبق وانكشف، ولكنه مالبث أن شعر بالإرتياح وهو يراهما واقفين بجمود تام إلى جانبي الباب الأمامي.

ولم يكونا يتحدثان مع بعضهما، إنما الملل كان مرتسماً على ملامحهما.

وأغلق الباب ثانية وقد تملكه السخط لاضطراره إلى هذا السلوك الحذر، والذي أفقده هدوءه.

لقد كان واثقاً من أن شعوره بالأمان لا يمكن قط أن يعود إليه، سواء كان جالساً مع صديق، أم يخوض في احاديث سرية مع السياسيين الذين كثيراً ما يزورونه.

وحدث نفسه بأن هذا شيء غير معقول، وتساءل عن البديل لهذا كله، فالإستغناء عن الخدم هو أمر لا يمكن التفكير فيه.

وبعد ساعتين، ابتدأ يفكر في أن وولترز لا بد قد فشل في مهمته.

وإذا بباب المكتب يفتح، ويبرز منه هانسون، رئيس خدمه، وهو يقول: «ان وولترز يريد ان يتحدث مع سيادتك عن الحصان، النجم الاحمر، يا سيدي.»

فقال الماركيز: «ادخله إذن.»

بعد نلك بدقيقة، دخل وولترز المكتب وقد توهج وجهه قليلاً، إلا أن علائم الرضا كانت بادية على وجهه.

وقبل ان يقول شيئاً، وضع الماركيز اصبعه على شفتيه، ثم تقدم نحو أبعد نافذة في الغرفة، عن الباب، مشيراً إلى وولترز بأن يتبعه.

وعندما وقفا بقرب بعضهما البعض، قال الماركيز: «تكلم بصوت خافت، لا أريد أن يسمعنا أحد.»

«طبعاً يا سيدي.»

«هل نجحت في مهمتك؟»

«نعم يا سيدي، واظنها وظيفة ممتازة لذلك السيد.»

فسأله الماركيز: «وما هي؟»

فأخذ وولترز يبحث في جيوبه إلى أن اخرج ورقة كتب عليها.

اللايدي هورنكليف
إيزلينغتون هاوس
إيزلينغتون سكواير

قرأ الماركيز الاسم بعناية ومالبث أن شعر بالسرور لأنه لم يسبق أن سمع بهذا الاسم من قبل.

سأله: «هل قلت انك ظفرت بهذه الوظيفة؟»

«نعم يا سيدي، لقد اعطوني الوظيفة على الفور لأن السائق قد كسرت ساقه.»

فأومأ الماركيز برأسه، بينما تابع الحوذي يقول: «اخبرني السكرتير أن سيادتها ستغادر إلى هيرفورشاير غداً صباحاً، وعلي أن اكون في الاسطبل الساعة الثامنة صباحاً.»

وتملك السرور الماركيز. فقد سارت الأمور بسرعة أكبر مما كان يتوقع.

فهذا يعني أنه سيغادر لندن قبل أن يدرك ذلك احد.

وسيترك تشارلس لتبرير غيابه. وكان يعلم أيضاً أن غيابه سيحير فلور، وكان يأمل بأن يتملكها القلق.

ولكنه عاد يرغم نفسه على الانتباه إلى ما كان وولترز يقول: «حيث ان الرحلة ستكون طويلة، ستسافر سيادتها في عربة مقفلة يجرها أربعة جياد. وسترسل الحقائب في عربة كبيرة في الصباح الباكر.» وسكت يستجمع انفاسه، ثم عاد

يقول: «سيكون هناك فارسان على جانبي العربة من الخارج، يا سيدي.»

فقال الماركيز: «يبدو أن اللايدي تحب السفر بشكل استعراضي.»

وعاد يبحث في ذهنه عن اسم اللايدي هورنكليف، فلم يتذكر انه سبق وسمع به، كما أنه لم يكن يعرف أحداً في حي إيزلينغتون حيث تقيم والذي اصبح مؤخراً جزءاً عصرياً من لندن.

فسأل وولترز: «عند وجودك هناك، يا وولترز هل عرفت شيئاً عن سيادتها؟»

«علمت فقط انها غنية جداً، يا سيدي، ولكنها بخيلة.»

ابتسم الماركيز، فهذه هي المعلومات التي كان يريدها، فسأله: «هل هناك شيء آخر؟»

أجاب: «لم يقل السكرتير شيئاً كثيراً، يا سيدي، ولكن السائسين قالوا انهم مسرورون لأنهم لن يذهبوا هم أيضاً في هذه الرحلة.»

فضحك الماركيز، ثم قال: «إنني واثق من أن صديقي ستسره معلوماتك هذه، وستسهل عليه القيام بدور الحوذي.»

فقال وولترز: «وقد تفحصت الجياد جيداً يا سيدي، فوجدتها في أحسن حال.»

فشعر الماركيز بالإرتياح، ولكنه لم يقل ذلك.

قال: «إنني اعلم صواب حكمك، ياوولترز، وإذا جاء الأمر إلى الخيل، فرأيك هو الحكم.»

فقال وولترز: «أرجو ذلك، كما أرجو أن يجدها

الرجل الذي سيسوقها سهلة القياد، كما يبدو مظهرها.»

فسجل الماركيز ملاحظة بالنسبة لهذا الأمر، ثم عاد يشكر وولترز مرة أخرى، قائلاً: «ان صديقي سيكون شاكراً لك جداً هذا العون، وقد طلب مني اعطاءك هذا.» ووضع في يد وولترز ثلاثة جنيهات، فتألقت عيناه وهو يضعها في جيبه، قائلاً: «هذا كرم بالغ، يا سيدي، إنني اشكر ذلك السيد وأتمنى له النجاح.»

فقال الماركيز: «اظنه سيكون بحاجة لذلك، ولكن تذكَّر... إياك ان تذكر أية كلمة عن هذا الأمر.»

فقال وولترز: «ساكون صامتاً كالحجر.»

وعندما أشاح الماركيز بوجهه، قال وولترز: «أرجو ان تدعني اعلم، يا سيدي، إن نجح في مسعاه.»

فأجاب الماركيز: سأخبرك طبعاً، ولكن هذا لن يكون قبل اسبوعين.»

«اعلم ذلك، وشكراً يا سيدي.» ولمس وولترز جبهته محيياً، ثم غادر غرفة المكتب.

أخذ الماركيز يتفحص قطعة الورق المدون عليها عنوان اللايدي هورنكليف. ثم اخذ يحدث نفسه، الساعة الثامنة من صباح الغد.

ثم وضع قطعة الورق في جيبه، ثم أرسل خادماً إلى مسكن اللورد تشارلس يدعوه إلى العشاء.

لم يكن قد سبق ووضع خطة لقضاء هذا المساء لأنه لم يكن يعلم متى سيعود وولترز، إذ أنه إذا كان قد فشل في مهمته مع هذه الوكالة، فهو سيعود فيرسله إلى أمكنة أخرى في لندن.

أما الآن، فسيتحدث إلى تشارلس بدلاً من ان يجلس وحيداً مع أفكاره.

ونظر إلى ساعة الجدار.

لقد تأخر نصف ساعة عن موعده المعتاد مع فلور في شارع بارك ستريت.

وهي الآن واقفة تنتظر عند النافذة وعيناها على بوابة الحديقة المفتوحة. إنها ستتساءل عما اعاقه عن الحضور ولماذا لم يخبرها بذلك.

ذلك انهما اعتادا، عندما كان عليه الاتصال بها، أن يرسل رسالة صغيرة إلى خادمتها.

لقد كانت جونيس هي الشخص الوحيد، حسب تأكيد فلور له مرة بعد مرة، الذي يعلم بحبهما هذا.

وهو يدرك الآن، وقد تملكه الحنق، أن جونيس كانت تخبر خادم بيرسيفال بكل ما يفعلانه.

وتمتم يحدث نفسه: «يا لها من فتاة، انها خداعة مثل سيدتها.»

لقد تساءل عدة مرات أثناء النهار، عما إذا كان الدوق قد توفي.

فإذا كان ذلك، فهل ستخبره فلور شفهياً أم بواسطة رسالة أنهما لم يعودا مخطوبين؟

وآلمه بشكل لا يحتمل، تفكيره في انها تستسلم إلى حب ستيفتون بالطريقة التي تستسلم بها إلى حبه.

أتراها تخبره بذلك الصوت الخافت الحلو البريء بأنها تحبه؟

وقال بوحشية، أف منها، انها ستحتل افكاري إلى أحد

طويل ولن يكون بإمكاني أبداً أن أثق بامرأة بعد الآن. فهو أحمق حقاً إذا كان لا يضع في حسبانه نظرة المجتمع إليه.

فهو يعلم ما يعني، بالنسبة لأية امرأة، أن تكون الماركيزة أوف مونتيغل وتضع تاج الأسرة على رأسها في حفلة افتتاح البرلمان.

لقد كان دوماً يفكر في أنه عندما تصبح له زوجة، فستشرف مائدته كما كانت تفعل أمه. إنه يتذكر كيف كان يتلصص بالنظر إليها من معرض الصور عندما تكون هناك حفلة في القصر، وكيف كانت تبدو له كملكة الحكايات الخرافية.

إنه يتذكر سؤاله لها في احدى المناسبات: «هل هنالك حفلة كبيرة جداً هذه الليلة، يا ماما؟»

حينذاك، اجابته أمه: «إنها كبيرة جداً، يا حبيبي. وسيحضرها ملك وملكة من الخارج، وكذلك رئيس وزراء انكلترا.»

فقال الماركيز: «إنني أحب أن أتناول العشاء معكم.»

فاحتضنته أمه ثم قالت: «يوماً ما، يا حبيبي، ستجلس في مكان بابا، وأرجو أن يكون لديك زوجة جميلة جداً وتحبك كثيراً فتجلس في مكاني.»

فقال: «ولكنها لن يمكن أن تكون بقدر جمالك يا ماما.»

وضحكت أمه عند ذاك، قائلة: «أرجو أن تكون أجمل مني وتحبك بقدر ما أحبك.»

ثم خرجت، بينما بقي هو مستيقظاً مدة طويلة، وهو يفكر الآن بأن تمنيات أمه تلك لن تتحقق.

فالنساء سيرغبن في الزواج منه لأنه يجلس في مكان والده ومن ثم تجلس زوجته في مكان أمه والتاج على رأسها، وعاهد نفسه بعدم الزواج.

قال ذلك بصوت مرتفع وهو يشعر بأنه لا يتحدى بذلك فلور، بل كل النساء.

ولكنه مالبث أن فكر يائساً بأن عليه، عاجلاً أم آجلاً، أن يتخذ زوجة.

ذلك ان عليه ان ينجب وريثاً ليصبح الماركيز بعده ومن ثم يتابع تقاليد الأسرة.

وهو نفسه، سيتقبل تطبيق التقاليد المتعارف عليها عند ذوي الألقاب.

إذ عندما يتقاعد حاكم اكسفورد الحالي، سيكون هو الذي سيخلفه. حيث أنه حالياً المرشح لذلك كما أنه مساعد فخري لولي العهد.

وكل ماركيزات أوف مونتيغل يصبحن وصيفات شرف الملكة.

فهنالك اكثر من عشر وظائف تنتظر ان تمتلىء، بشكل تلقائي، من جراء وراثته لمركز أبيه.

كان يريد طبعاً أن يكون له ولد يرثه. ولكنه، حالياً، يشعر بالإنكماش من فكرة الزواج، تماماً كما يشعر بالإنكماش من النساء لأن مجرد أن يقع نظره على امرأة، يذكره ذلك بفلور، وكيف كذبت عليه، وكذبت، وكذبت، وكان ما يزال يذرع غرفة مكتبه، عندما عاد الخادم برسالة من اللورد تشارلس يقول فيها انه سيكون عنده قبل الساعة الثامنة مباشرة،

وصعد الماركيز إلى غرفته لتغيير ثيابه، وكان هناك خادمه في انتظاره.

وكان هذا خادماً في الأسرة ابتدأ حياته في القصر ثم أصبح خادمه الخاص منذ تخرجه من كلية إيتون. وكان يتمنى لو كان اتخذ بدلاً منه، مراسله الذي كان مكلفاً بخدمته في الجيش والذي رافقه أثناء الحرب في البرتغال وفرنسا.

ولكنه كان يعلم أن هذا سيثير الكثير من الامتعاض، كيف يوظف غريباً في ما يعتبر أهم مركز بين خدم القصر؟

وهكذا ودع الماركيز هاوكنز بعد أن منحه تعويضاً يؤمن به حياته.

كما وجد له وظيفة عند احد اصدقائه الذين لا يثقل كواهلهم عدد كبير من خدم الأسرة.

وكان خادمه الحالي، ستورثون، ممتازاً في عمله، وكان الماركيز يعتبره دوماً بالغ الوفاء له، ولكنه الآن يتساءل عما إذا كان ستورثون يستحق ثقته؟

فهو، إذا كان على معرفة مع خادمة إحدى جميلات المجتمع، فسينقل إليها كل ما يسمعه، وإذ جعله مجرد هذا التفكير، غاضباً، فقد بدل ثيابه بصمت مطبق، ما جعل ستورثون ينظر إليه متوجساً، وهو يتساءل عما عسى أن يقلق سيده.

وفجأة، خطر ببال الماركيز ان ستورثون يعلم بقصته مع فلور.

ولهذا، قد يشك في الأمر إذا هو بدا غاضباً أو مكتئباً،

وحدث نفسه، متى انتهي من ورطتي هذه، أم أن من غير الممكن أن أعود طبيعياً مرة أخرى؟ وهنا تذكر أن ليس لدى ستورثون فكرة عن أنه سيهرب.

وبجهد بالغ، قال بشكل عفوي: «آه، لقد نسيت ان اخبرك يا ستورثون، بأنني راحل إلى الأرياف لليلة أو ليلتين وذلك مع اللورد تشارلس، إنه يريدني ان أرى بعض الجياد التي يريد أن يشتريها، ويظن أنها صفقة ممتازة، ولكن من الخطأ أن يعلم البائع بهويتنا.

فنظر إليه ستورثون بدهشة، ثم سأله: «وكيف ستمنعه من معرفة ذلك، يا سيدي.»

«إنه يبدو رجلاً بسيطاً عديم الشأن، ولكنه حاذق تماماً عندما يتوقف الأمر على ثمن ما يريد بيعه.»

فضحك ستورثون قائلاً: «كلهم كذلك، يا سيدي.»

فقال الماركيز: «اعرف هذا، إحزم لي فقط بعض الأشياء التي ساحتاجها، ولكن دون أن تضع ما يلفت النظر بأناقته، هل فهمت؟»

«طبعاً يا سيدي، ولكن متى ستغادر؟»

أجاب الماركيز: «حوالي السابعة صباح الغد، ولهذا أريد منك ان توقظني قبل ذلك بساعة، إن اللورد تشارلس سيأتي لأخذي، وأنت طبعاً، لن تأتي معي.»

«إنني آسف لذلك، يا سيدي.»

فقال الماركيز: «اظنك ستجد ما تقوم به في غيابي.»

وراح، وهو يتكلم، يبتسم بزهو، فأدرك ان هناك امرأة في حياته.

وتملكته الرغبة في سؤاله عما إذا كانت خادمة سيدة، ومن هي سيدتها.

ولكنه عاد ففكر أن من الخطأ إلقاء اسئلة بهدف الوصول إلى الشيء الذي قد يتذكره الخادم فيما بعد، وقال عندما انتهى من ارتداء ملابسه: «إحزم كل شيء هذه الليلة. وطبعاً، لن آخذ معي حقيبة ملابسي الجلدية أو أي شيء عليه شعار الأسرة.»

«سأحاذر ذلك، يا سيدي، ولكنك طبعاً ستأخذ معك ملابس الركوب؟»

قال الماركيز: «نعم، بالطبع، وفي حالة خروجنا تحت المطر، أرى أن تضع لي المعطف الواقي من المطر.»

فقال ستورثون: «سبق وأخبرتك بأنه أصبح في حالة رثة، يا سيدي.»

فقال الماركيز: «هذا افضل بالنسبة لهذه الرحلة، ولكن ذكرني بشراء معطف جديد عند رجوعي.»

«سأقوم بذلك يا سيدي.»

فهبط الماركيز السلم. لا بد ان تشارلس في انتظاره، ولكنه كان مصمماً على ألاّ يجري معه أي حديث داخل منزله إذ أن الخدم قد يسترقون السمع.

وشعر وكأنه يعيش في بلاد أجنبية، ذلك أنه لم يحدث قط في حياته أن ارتاب فيمن حوله، أو أساء الثقة بكل امرأة، أو شعر بأن أي رجل ارفع منه لقباً، هو عدو له.

وعندما دخل المكتب، وجد تشارلس في انتظاره.

وشعر هذا، والماركيز يدخل الغرفة، بأنه يرى، لأول مرة في حياته، صديقه الماركيز وقد التوت شفتاه سخرية.

* * *

وصل الماركيز إلى اسطبلات منزل هورنكليف في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي.

وكان تشارلس قد تدبر أمر توصيله إلى هناك في عربة شعبية، والتي بدت له فيّ غاية البطء بالنسبة إلى جياده المتوثبة.

وكان الماركيز قد سأل صديقه عندما أتى لأخذه من منزله في بيركلي سكواير: «هل لديك أخبار؟»

ولم يشأ اللورد تشارلس الإعادة بأنه لم يفهم عمّا يتكلم الماركيز. فأجاب: «لقد جاء ستينفتون إلى النادي بعد خروجك، وسمعت البعض يسأله عن حالة أبيه الصحية.»

فسأله الماركيز: «وماذا كان جوابه؟»

فأجاب تشارلس: «لا يوجد أي تحسن، ولكننا لم نفقد الأمل بعد.»

وفكر الماركيز في أن هذا سيترك فلور مشغولة البال، ولا شك أنها الآن تسعى إلى الاتصال به، فهي تريد أن تعلم السبب في عدم ذهابه إليها حسب الموعد الذي كان بينهما.

وسأل اللورد تشارلس: «ما الذي ستقوله عندما تسأل فلور، وكذلك عدد من معارفنا، عن مكاني.»

فأجاب صديقه: «لم أقرر بعد، في الواقع، ربما أقول انك ذهبت إلى الريف... ليس إلى قصرك بل إلى أحد منازلك الأخرى بعد أن اخبروك بأن سرقة قد حدثت هناك.»

فسأله الماركيز: «وما هو المفروض ان يكونوا قد سرقوا منه؟»

فأجاب اللورد تشارلس: «هذا غير مهم، ذلك لأن كل شخص سيشعر بالخوف من أن يتعرض، هو أيضاً، للسرقة. وقبل ان اتابع الحديث عما حدث لك، سيكونون هم مستغرقين في الحديث عما سبق وحدث لهم، وإخباري عن احتياطاتهم لذلك.»

فضحك الماركيز، وإن لم تكن ضحكته تلك من القلب. «وبمعنى آخر، فانت لا تظن أن احداً سيهتم بغيابي؟»

«فلور فقط، وإذا تحسنت صحة الدوق، سيتملكها الذعر بالنسبة إليك.»

«دعها إذن، بتلك الحالة إلى حين عودتي.»

فسأله تشارلس: «وماذا ستفعل عندئذ؟»

أجاب الماركيز: «لم أقرر بعد، ولكنني قد أسافر إلى الخارج.»

«اتريدني ان اسافر معك؟»

«طبعاً، وسيكون بإمكاننا أن نكتشف امكنة في العالم لم نشاهدها من قبل.»

قال اللورد: «لا بد لي من القول إن هذا شيء طالما رغبت فيه، ولكن لم يكن باستطاعتي جعلك تبتعد عن قصرك

المحبوب، وجيادك التي كثيراً ما ظننت انها تهمك أكثر من أية امرأة.»

فأجاب الماركيز: «وهذا ما كنت أظنه، أنا أيضاً، إلى أن قابلت فلور.»

قال اللورد بهدوء: «عليك أن تنساها، وحيث أنني سبق ومررت بنفس تلك الأحزان، لا يمكنني الا ان اقول ان الزمن يشفي الجراح.»

قال الماركيز: «أراك على صواب، ولكن، إلى أن تشفى الجراح، يبقى الألم لا يطاق.»

قال اللورد: «اعلم ذلك. ولكن فكر في مقدار الألم الذي كنت ستشعر به لو انك اكتشفت كل هذا بعد زواجك منها.»

وأدرك الماركيز أن صديقه يعني أن فلور ستكون حينذاك، غير مخلصة. وانه لن يكون بإمكانه القيام، حينذاك، بأي شيء تجاه هذا الأمر، إلا إذا قبل الفضيحة.

فقال بعد فترة صمت: «الحق معك، وأنا اعلم تماماً، يا تشارلس، سبب إبعادك لي بهذا المشروع السخيف الغبي.»

وسكت برهة، ثم عاد يقول: «ولكنني سأتعب اثناء ذلك، بينما نفسي ما زالت تعاني من الصدمة.»

«ابتهج، أيها الفتى، فقد تجد هذا الأمر مغامرة شيقة وما عهدتك تتهرب من أمر كهذا.»

فضحك الماركيز، وقال: «حسناً يا تشارلس، لقد انتصرت علي. إنني اعلم انك إنما تريدني ان اتخلص من

الاكتئاب المستولي علي. ولكن، إذا شئت الحقيقة، ان كل شيء قد أصبح في عيني سيئاً قذراً.»

«هذا طبيعي، ولكنني مسرور لتمكني من إنقاذك.»

قال الماركيز: «انك صديق مخلص. وربما ساكون يوماً ما، شاكراً لك لهذا الجنون الذي اقوم به، ولكن لا يمكنني إلا أن افكر في هربي الأحمق هذا.»

وقفت العربة الشعبية بهما امام الاصطبلات. فانحنى اللورد تشارلس إلى الأمام يفتح الباب، قائلاً: «اتمنى لك حظاً سعيداً، وانتبه إلى نفسك. وإذا لم تعجبك المغامرة هذه، يمكنك في أي وقت أن تستسلم.»

فأجاب الماركيز: «ماذا؟ وادعك تأخذ حصاني العاصفة؟ كم اكون غبياً إذا سمحت لك بذلك.»

فضحك اللورد تشارلس، بينما ابتعد الماركيز حاملاً حقيبته ومازال صدى تلك الضحكة يلاحقه.

دخل الاصطبلات مرتدياً ملابس الركوب وفوقها المعطف الواقي من المطر.

قد يراه ستورثون رثاً، ولكن الذي فصله هو أحسن خياط في لندن.

وفي الواقع، كان الماركيز يبدو بالغ الأناقة بقبعته العالية تلك وحذائه اللامع، وهذا كان لباس سائقيه وهو احدث طراز الآن، ما خدم كبار السن من الارستقراطيين فما زالوا يرتدون القبعات الشبيهة بقبعة نابوليون بونابرت والتي يبدو بها في كل رسم كاريكاتوري.

وكان الماركيز، حال رجوعه من الحرب، قد أمر باتلاف كل بزات خدمه القديمة تلك.»

وكان الفرق الوحيد بين قبعة الماركيز وقبعة الحوذي، ذلك الشريط الحريري المعقود في مقدمة قبعة الحوذي.

ولم يكن ذلك الشريط الحريري مسموحاً به إلا إذا كان السيد نفسه له حق استعمال وسم خاص به، وحيث أن الماركيز لم تكن لديه فكرة عما إذا كانت اللايدي هورنكليف تملك وسماً خاصاً، لم يكن متوقعاً منه أن يصل عاقداً شريطاً على قبعته.

وكان مفروضاً فيه، في الواقع، ان يسلم الشريط الحريري هذا عند تركه مخدومه السابق، كما يسلم ملابسه الأخرى من بزة موسومة الأزرار الفضية وصدار مخطط.

كان وولترز قد اخبر الماركيز بأن اصطبل اللايدي هورنكليف يقع في منتصف الطريق إلى الاصطبلات العامة، قائلاً له: «إنه مطلي باللون الأخضر القاتم، يا سيدي، ويحتوي على مرابط لأثني عشر حصاناً على الأقل.»

ولم يجد الماركيز صعوبة في العثور على المكان، وعندما دفع الباب، رأى أربعة سائسين ينظرون إليه بأعين متسائلة.

بادرهم قائلاً بلهجة حاول ان يجعلها عامية: «صباح الخير؟ إنني جون ليون، واظنكم تعلمون بقدومي.»

فهتف اكبرهم سناً وهو يمد يده: «لقد جئت في الوقت المناسب، لأن سيادتها تقول انها ستشرع بالسفر باكراً، وكنا خائفين من ألاّ تأتي أنت لقيادة الجياد.»

وضحك، فضحك الماركيز بدوره يسايره.

سألهم: «إلى متى عليّ أن انتظر؟»

فأجاب رجل آخر: «لا تهتم بذلك، فهي تلقي أوامرها في الليل وتلغيها في الصباح، حتى لا يكاد الواحد منا يعرف رأسه من رجليه، كما ستجرب بنفسك.»

«أظن كل النساء العجائز بهذا الشكل.»

فحملق فيه السائس، ثم قال آخر: «ما الذي جعلك تظن أن اللايدي امرأة عجوز؟»

فأجاب الماركيز: «بعد الذي قلته أنت عنها، ظننت أنها لا بد أن تكون كذلك.»

فضحك السائسون، وقال كبيرهم سناً: «حسناً، قد يدهشك أن تعلم ان سنها لا يعدو الخامسة والعشرين وجميلة كصورة في إطار ذهبي، هل لديك اسئلة أخرى؟»

فابتسم الماركيز، ثم قال: «لقد أدهشتني حقاً.»

الفصل الثالث

ساق الماركيز العربة، والتي كانت تبدو له جديدة فخمة، متجهاً إلى الباب الأمامي.

منذ اللحظة التي أمسك فيها بلجم الجياد، أدرك انها ممتازة وأنه سيستمتع بقيادتها. كان امام الباب سجادة حمراء وأربعة خدم في بزات قرمزية مذهبة، وقد ساد الجو التوتر، وأدرك الماركيز سبب هذا عندما سمع صوتاً حاداً ثاقباً يتحدث داخل المنزل.

كان صوت شخص ما يلقي بالأوامر، ومعنفاً، في نفس الوقت، لخطأ ارتكبه البعض.

وتكهن بأنه صوت مخدومته، ولكنه كان من الحكمة بحيث لم يدر رأسه وإنما بقي ناظراً إلى الأمام، كما أنه خفض رأسه لكي يسمح لياقة معطفه العالية بأن تحجب وجهه.

وما لبث أن أدرك أن رجلاً كان يخاطبه من أسفل.

وبلمحة خاطفة، أدرك أنه السكرتير الذي كان قابل وولترز، وكان يقول: «ها هي ذي التعليمات يا ليون. اظنك تعرف القراءة.»

«نعم، يا سيدي.»

وكان الماركيز ينطق بلهجة وولترز العامية المدغومة.

«إن سيادتها تريدك ان تقود العربة بسرعة، إنما بأمان، فلا تجازف.»

«حاضر، يا سيدي.»

واخذ قطعة الورق التي اعطيت له، ثم ألقى عليها نظرة.

لقد أدرك ما كان توقعه، وهو أن يخرج بالعربة من لندن، ثم يسلك، بعد ذلك، طريق اكسفورد، وكان يعرف الطريق جيداً حيث أنه كان أمضى ثلاث سنوات في جامعة اكسفورد، قبل أن يلتحق بفرقته.

وكان يفكر في ان الطريق لا بد أن يكون في حالة جيدة بالنظر إلى الجو الحسن.

وكان الخادم المفروض أن يجلس إلى جانبه على الصندوق، واقفاً عند رؤوس الجياد، وذلك احتراساً منه لئلا تحاول التحرك قبل ان تستقر اللايدي هورنكليف في مجلسها داخل العربة.

وحول الماركيز رأسه بخفة لا تكاد تلحظ، فتمكن بهذا من أن يرى اللايدي هورنكليف وهي تخرج من المنزل.

لقد كان السائسون على حق، فقد كان جميلة، ولكنها صارخة الزينة.

حوّل الماركيز عينيه بسرعة، وهو يبتسم، كان يفكر في مقدار التسلية التي سيجدها تشارلس عندما يرى شكل مخدومته.

دخلت اللايدي هورنكليف العربة وهي تلقي بسلسلة من الطلبات إلى السكرتير، بصوتها الثاقب، وكانت تتبعها امرأة أخرى.

وعندما استقر بهما المقام، ووضعت الدثارات على ركبتيها، أغلق الخادم الباب.

وكانت هذه إشارة إلى الرجل الذي كان يمسك بالجياد،

وذلك لكي يتسلق إلى حيث يجلس على الصندوق بجانب الماركيز بقدر ما يمكنه من سرعة.

وعندما حياها رئيس الخدم ورجاله، احتراماً، انطلقت بهم العربة.

ولم يكن الماركيز قد قطع مسافة طويلة، عندما قال له الخادم الجالس بجانبه، والذي اسمه، كما يتذكر هو جاك، قال: «أرجو أن تكون عالماً بالطريق. ان سيادتها تغضب جداً لو أننا اخطأناه.»

فأجاب الماركيز: «إنني اعرف الطريق.»

وعاد ينظر إلى التعليمات في الورقة مرة أخرى، ثم وضعها في جيبه.

رأى فيها ان عليهم ان يتوقفوا عند خان لتناول الغداء، وكان على بعد حوالي الخمسة عشرة ميلاً، وحيث انهم قد شرعوا في الرحلة في الساعة المحددة فقد كان حسابه بأنهم سيقطعون تلك المسافة بسهولة، وهكذا لن يتعرض للمتاعب لتأخره. وكانت الشمس مشرقة، ولكن كان ثمة برودة منعشة في الجو أشعرته بالنشاط.

وهكذا جلس يقود الجياد مستمتعاً بذلك، فقد كان بالغ السرور ان لم يكن عمله يقتضيه ان يكون داخل عربة مغلقة وهو ما كان يكرهه دوماً. لقد اختار، على الأقل، عملاً يمكنه من أن يبقى دوماً في الهواء الطلق.

وعندما أصبحوا خارج لندن، ودخلوا الريف، دفعه الفضول إلى أن يقول لجاك: «هل مضى عليك زمن طويل في خدمة سيادتها؟»

«سنتان، ولكنهما يبدوان اطول، لأنها، حين تغضب، تصبح لا تطاق.»

فسأله الماركيز: «ماذا حدث لزوجها؟»

«لقد مات، وهذا هو السبب في مجيئها إلى لندن.»

فقال بعد لحظة صمت: «اظنه كان كبير السن بالنسبة إليها.»

«وكيف علمت ذلك؟»

«واظنه كان غنياً.»

«كلا، لقد كانت هي الغنية.»

فأدهش هذا الماركيز، ولكنه عاد يركز اهتمامه على الجياد التي يقودها، وهو يفكر في أنه سيستعلم عن المزيد فيما بعد.

وكان الفارسان الخارجيان يتبعان العربة أثناء خروجهم من إيزلينغتون سكواير، وما ان اصبحوا في الحقول، حتى تقدما إلى جانبي الطريق، ولاحظ الماركيز أنهما كانا شابين فتيين، بينما الجوادان اللذان كانا يمتطيانهما كانا بمثل جودة الجياد التي كان يسوقها هو.

قال وكأنه يخاطب نفسه: «إن ذوقها في اختيار الجياد، حسن جداً.»

فقال جاك: «ان الجياد تلك ليست من اختيارها هي، بل من اختيار السيد الذي كان يميز الجواد الجيد من أول نظرة.»

ورأى الماركيز أن خيوط الأحجية قد ابتدأت تتجمع لديه، ما يجعل الصورة التي تتشكل في ذهنه تبدأ في الاكتمال.

وصلوا إلى الخان في الوقت المحدد، فأوقف العربة، وأدخل الجياد إلى فناء واسع، وقفز جاك يفتح باب العربة.

وتساءل عما إذا كانت مخدومته ستبدي ملاحظات على قيادته أو تخبره عن خطأ اقترفه.

ولكن سيادتها دخلت الخان مسرعة حيث كان صاحبه في انتظارها لينحني لها احتراماً، وكانت تتبعها مرافقتها التي لاحظ الماركيز أنها فتية رشيقة القوام. وعاد ينظر إلى التعليمات.

إن عليهم ان يغيروا الجياد بأخرى يبدو أنها كانت ارسلت قبلهم، والليلة سيمضونها في خان يدعى التنين.

كان ما عليه القيام به حالياً، هو إرواء الجياد ووضعها في الشمس.

سأل جاك: «هل تشعر بالجوع؟ هل هنالك شيء نأكله؟»

«سيكون لنا طعام، ولكنه ليس وافياً. إنها لا تدفع نقوداً كافية.»

فرفع الماركيز حاجبيه. ذلك أن من المعتاد ان يقدم المخدوم، في الرحلات الطويلة، للحوذي والفرسان طعاماً جيداً وشراباً في الغداء والعشاء.

ولكنه لم يقل شيئاً، بل طلب من خادم في الخان الانتباه إلى الجياد.

وبعد ذلك تبع الرجال الثلاثة الآخرين الذين كانوا سبقوه إلى الداخل.

وجدهم في غرفة صغيرة حقيرة كانت معدة لسائقي الزبائن.

وكان الماركيز يعلم بخبرته الخاصة أن اللايدي

السرير رأى امرأة فتية تبكي بشكل متشنج، ولم يكن على المنضدة سوى شمعة واحدة رآها على ضوئها.

ووقف ينظر إليها وقد أدرك انها لم تسمعه. عند ذلك، ترك الباب مفتوحاً ثم تقدم نحو السرير.

سألها: «هل يمكنني مساعدتك؟»

ورآها تتجمد في مكانها وقد توقفت عن البكاء.

وسألها بهدوء: «ما الذي يحزنك؟»

فأخذت تنظر إليه بدهشة بالغة، كانت اهدابها مبتلة والدموع تملأ عينيها.

اتكأت على ذراعها وهي تحدق به بصعوبة، وما أن جلا بصرها، حتى تملكتها الدهشة لرؤيته.

وسألته بشفتين ترتجفان: «من... من أنت؟»

فأجاب: «إنني في الغرفة التي بجانبك، وشعرت بأن علي أن اسألك عن سبب حزنك هذا، وعما إذا كان بإمكاني مساعدتك في بعض النواحي.»

فأجابت: «كلا... لا احد بإمكانه مساعدتي، ولكنني... آسفة إذ ايقظتك من نومك.»

فقال باسماً: «انك لم توقظيني، لأنني لم أكن قد نمت بعد.»

وكان يفكر وهو ينظر إليها أنه لم ير من قبل قط امرأة تبدو حين تبكي، بهذا الجمال.

رفعت يدها تمسح دموعها كما يفعل الطفل، وأخرج الماركيز منديلاً أبيض فاخراً من جيبه وناوله لها، فتناولته منه وهي تجلس، وعندما مسحت عينيها، قالت بصوت مرتجف: «إني... آسفة.»

فقال: «ليس هناك ما تأسفين لأجله، والآن، اخبريني بما يحزنك.»

فقالت: «لا أدري... ماذا افعل، وماذا استطيع ان افعل.»

كانت كأنها تحدث نفسها، ثم تابعت تقول: «كنت... كنت واثقة من انها... ستشعر معي. وبهذا يبقى بيتر معي... ولكن الآن...»

وعادت الدموع تتدفق من عينيها، وغطت وجهها بالمنديل بيديها الاثنتين، ورأى الماركيز كرسياً بجانب السرير، فجلس عليه، وهو يقول: «والآن، كفي عن البكاء واخبريني لما هذا كله؟ فان رؤية فتاة جميلة تبكي، يبعث على الحزن.»

فابعدت المنديل عن عينيها واخذت تحدق به، ثم قالت: «إنني... اعرف من أنت، انك... انك الحوذي الجديد... ولكن... لماذا أنت هنا؟»

عند ذلك فقط، أدرك الماركيز من تكون، فهو لم يكن قد رأى منها سوى ظهرها عندما تبعت اللايدي هورنكليف إلى داخل الخان.

أجاب قائلاً: «إنني هنا لأنني شعرت بوعكة في صحتي منعتني من الرقاد مع بقية زملائي، ولهذا استأجرت غرفة دفعت أجرتها من جيبي، وكل ما أرجوه منك ألاّ تكشفي أمري، وإلا أوقعتني في المتاعب.»

فقالت الفتاة: «إنني طبعاً، لن اقول شيئاً، كما ان أبي لو كان حياً لما وافق على عدم العناية الكاملة بالحوذي والفرسان.»

فقال الماركيز: «وأنا اوافق أباك على رأيه. وأنا

هورنكليف ستمنح غرفة جلوس خاصة، بينما الزبائن الآخرون سيأكلون في غرفة الطعام.

وكان الرجال الثلاثة جالسين إلى مائدة قديمة، رأى الماركيز عليها قطعة جبن ضخمة ورغيف خبز وقالب زبدة.

سألهم وهو يجلس معهم: «هل هذا هو كل طعامنا؟»

فأجاب جاك: «إنه كل ما دفعت هي ثمنه.» وقطع أحد الفارسين، واسمه بن شيئاً من الجبن وهو يقول: «إنني جائع جداً.»

فقال الماركيز: «وكذلك أنا، سأرى ما يمكنني أن اصنع بهذا الشأن.» وخرج من الغرفة فرأى صاحب الخان خارجاً لتوه من غرفة جلوس اللايدي الخاصة.

وما أن قابله، حتى رأى خادمة تمر بهما حاملة صينية عليها سمكة سلمون كبيرة واوزة محشوة، وتتبعها خادمة أخرى تحمل دجاجتين مشويتين ورأس حمل مشوي، وعندما رأى صاحب الخان عيني الماركيز تنظران إلى الطعام، قال بحدة: «لقد وضعت على مائدتكم ما أمرت به.»

فقال له الماركيز: «احضر لي لحم بفتيك، ولسان ورأس الحمل المشوي إذا لم ترغب به سيادتها، وأنا سأدفع الفرق.»

فنظر إليه صاحب الخان بدهشة، ثم قال: «انك حر بنقودك، حسناً، ليس هذا من شؤوني.»

فقال الماركيز: «ليس من شؤونك، ما عدا أنني أريد احسن انواع اللحم وليس ذلك الذي سبق ورفضه زبائنك.»

فنظر صاحب الخان إليه بحدة وكأنه ينوي أن يقول شيئاً غير لائق، ولكنه ما لبث، كما يبدو، أن غير رأيه.

إذ أنه، بالرغم عنه، تأثر بمظهر الماركيز، فقال: «انك ستحصل على ما تدفع ثمنه.» ثم سار نحو المطبخ.

وما لبثت أن جاءت خادمة إليهم بقطعة كبيرة من البفتيك، وديك حبش، وبعد ذلك، جيء برأس الحمل من الغرفة الخاصة ما أثلج قلوب الرجال وجاك.

وقال بن: «هذا لطف كبير منك. لقد شعرت الآن بأنني رجل جديد.»

ورأى الماركيز أنه حقاً يبدو الآن أحسن حالاً. فقد تلاشى من وجهه ذلك الشحوب الذي يعلم انه يدل على نقص في التغذية.

وشعر الماركيز بالغضب من خسة بعض الناس. فقد كان حريصاً على ان ينال مستخدموه على الدوام الكفاية من الطعام الجيد.

وما لبث أن دفع ثمن الطعام والشراب الذي طلبه لهم، وبهذا اصبحوا اصدقاءه، وتغيرت معاملتهم له. ذلك انه كان لاحظ منهم شيئاً من العداء نحوه في بداية رؤيتهم له. حيث أن مظهره كان يختلف عنهم إلى حد جعلهم يظنونه، حسب تعبير صديقه تشارلس، وكأنه يهدف إلى شيء ما.

ولكنه الآن قد اظهر نفسه وكأنه واحد منهم، ثم اخذوا يتحدثون معه بطلاقة، واخذوا يمتدحون مهارته عندما اخبرهم أنه حصل على كل هذه النقود من وراء امتطائه حصاناً شارك في سباق الحواجز في بداية هذا الأسبوع، وكان الفوز حليفه فيه.

ثم نظر جاك إلى الماركيز وقال: «ان الوقت يمضي.» عند ذلك ادرك الماركيز أنه، بصفته الحوذي، عليه ان يجعلهم جاهزين جميعاً لمتابعة السير قبل ان تظهر اللايدي من حجرتها.

وعندما خرجت من الباب، كان هو جالساً في مكانه والفارسان على صهوتي جواديهما.

وانتظر الماركيز منها أن تتوجه إلى العربة مباشرة كما فعلت أول مرة. ولكنه دهش وهو يراها تتقدم نحوه قائلة: «إنني أريد أن أصل بسرعة إلى المكان المدون على قائمة الإرشادات عندك، فلا تتلكأ في الطريق.»

فرفع الماركيز يده يلمس قبعته بإصبعه احتراماً، ولكنه لم يتكلم.

وبعد لحظة، قالت بحدة اكثر: «هل تفهم ما اقول؟ لو انك سائق اكثر مهارة لوصلنا إلى هنا قبل الآن بربع ساعة.»

ومرة أخرى، لمس الماركيز قبعته احتراماً دون أن يجيب.

ثم تحولت اللايدي لتدخل العربة وهي تلقي برأسها إلى الخلف بكبرياء.

وعندما اغلق جاك الباب، عاد يصعد إلى جانب الماركيز، ومن ثم انطلقت بهم العربة.

لقد أدرك الماركيز انها تختلق له الخطأ لمجرد رغبتها في ذلك.

وهكذا أسرع بالجياد ليس فقط بالسرعة التي قادها بها في الصباح، وإنما بسرعة جعلت العربة تتارجح، فقد كان شديد الكره لمثل تلك التصرفات، ووصلوا إلى

القرية التي كانوا سيبيتون فيها الليل، في وقت قياسي.

كان الخان حسن المظهر تماماً، ولكنه ليس بنفس اتساع الخان الذي تناولوا فيه الغداء.

وما ان أوقف الماركيز العربة، حتى برز صاحب الخان من الباب.

ونزل جاك ليفتح باب العربة، وعندما نزلت اللايدي موركليف، تقدمت إلى الأمام تخاطب الماركيز قائلة: «انك تسوق بسرعة خطرة، وإن استمريت في مثل هذه القيادة، فسرعان ما ستجد نفسك تفتش عن عمل آخر.»

ولم تنتظر جوابه أو حتى رفع يده ليلمس قبعته، بل تحولت تدخل الخان.

وأراهم الخادم مكان الاسطبل بجانب الفناء، حيث رأى الماركيز مرابط الخيل نظيفة والعلف طازجاً. ووضع الفارسان جواديهما فيه، ثم تحولا يساعدان في فك جياد العربة.

وكان الماركيز، أثناء الحرب، يعتني دوماً بجياده. فهو لم يكن يثق بجنوده الذين غالباً ما كانوا يهملونها. وهكذا أخذ يساعد في رفع عدة الركوب عن الجياد ثم يدلكها، ويهتم بملء المزاود بالعلف الذي احضروه معهم. كذلك اهتم بملء الدلاء بماء نظيف من المضخة.

وعندما رأى بن يتقدم نحوه بمودة ظاهرة، بادره بقوله: «ألست جائعاً مرة أخرى؟»

فأجاب الفتى: «إن بإمكاني أن آكل ثوراً.»

فضحك الماركيز: «دعنا إذن نذهب لنبحث عن الثور هنا.»

وبخلا الخان. ووجدا الغرفة التي اعدت لهم مماثلة لتلك التي في الخان حيث تناولوا غداءهم، وكان هناك حوذيان آخران، ولكنهما غادرا الغرفة حالما دخل الماركيز.

وقال بن: «إنني اتساءل عما سيقدم إلينا.» ولكنه سرعان ما علم الجواب، وذلك بعد ان دخلت خادمة مسنة لتضع صينية امامهم على المائدة.

كان عليها كمية صغيرة من لحم الغنم المسلوق وطبق مملوء ببطاطا مسلوقة سيئة التقشير. فسأل بن: «هل هذا هو كل شيء؟»

ثم كان هنالك رغيف من الخبز القاسي ولا شيء غيره.

وبدت خيبة الأمل على وجوه الرجال ما جعل الماركيز يقول: «سأرى ما يمكن أن افعل.»

وعندما احضر لهم حساء الدجاج الدسم المدهش بلذته، وقطعة كبيرة من لحم البقر، لم يتذكر أنه سبق ورأى ضيوفاً لديه بمثل هذا السرور وعرفان الجميل، وفكر في ان تشارلس لا بد سيضحك عندما يعلم بما حدث.

وانتهى قبل الآخرين، وقف وهو يقول: «أرى أن أتمشى قليلاً لأطمئن على الجياد قبل أن آوي إلى السرير.»

فهتف واحد منهم: «السرير؟ انك لن تجد سريراً في المتخَت.»

فجمد الماركيز في مكانه وهو يتساءل: «المتخَت؟» فأجاب آخر: «إنه المكان الذي ننام فيه، وآمل أن يكون هناك ما يكفي من الأغطية، ففي آخر مرة سافرت مع سيادتها، لم أجد غطاء يكفي لتغطية قدمي.»

ولم يقل الماركيز شيئاً، ثم خرج من الغرفة. ذهب أولاً

إلى الاسطبلات حيث اطمأن على الجياد، ثم أخذ يتمشى في حديقة الخان.

سواء أعجب ذلك تشارلس أم لا، فهو لن ينام في المتخَت. وعلى كل حال، فهذا شيء لم يطلبه من مستخدميه، قط.

وعندما عاد إلى الخان، لم يجد أثراً للرجال، إختلى بصاحب الخان في ناحية، وقال له: «أشعر بأنني موعوك الصحة قليلاً، واظنني على وشك الإصابة بالزكام، ولهذا أرجو أن احصل على غرفة لنفسي، وسأدفع أجرتها طبعاً بنفسي.»

وأوشك صاحب الخان أن يخبره بأن عليه أن ينام مع زملائه في المتخَت، لولا أن نظرة في عيني الماركيز غيرت رأيه في الحال.

فقال: «إن هذا يكلفك نصف جنيه، إذا كنت تملك ذلك.»

فأخرج الماركيز من جيبه قطعة نقود وضعها على المنضدة وهو يقول: «أريد سريراً مريحاً، وأنا أرى ان الخان ليس مزدحماً.»

ولكن الرجل عاد إلى التردد برهة مالبث بعدها أن طلب من إحدى الخادمات أن تأخذ الماركيز إلى الطابق الأعلى، وكانت امرأة في منتصف العمر.

فأحضر حقيبته الجلدية من تحت مقعده في العربة ثم صعد مع الخادمة، ليس إلى الطابق الأخير كما كان يتوقع، ولكن إلى الأول حيث سارا إلى آخر الممر.

وفتحت الخادمة الباب وهي تقول: «ستكون هنا في أتم راحة، ولكنني مدهوشة لسماح السيد لك بالنوم هنا.»

فأجاب: «إنني شخص غير عادي.»

فقالت بلهجة فكهة لم يتوقعها: «أظن هذا ما يقوله لك كثير من الناس.»

وكانت الغرفة نظيفة مرتبة كما أن الفراش بدا مريحاً، وقال لها: «شكراً.» وتساءل عما إذا كان عليه أن يمنحها هبة، ولكنه عاد ففكر في أن ذلك سيبدو غريباً بصفته خادم، وبدلاً من ذلك، عاد يبتسم لها، وكان في عينيها، وهي تغلق الباب، نظرة اعجاب لا شك فيها.

وكانت قد حملت بيدها شمعة للاهتداء بضوئها عند قدومهما، فتركتها له على المنضدة.

فاشعل الماركيز منها شمعة أخرى ومن ثم أخذ يتساءل عما إذا كان تشارلس سيعتبر أنه يتجاوز العرف بعدم مشاركته الآخرين في النوم على المتخَت.»

ولكنه حدث نفسه قائلاً، لا أدري ما الذي جعلني أوافق على هذه الخطة السخيفة. وجعله الجواب يفكر في فلور.

ومشى نحو النافذة يزيح ستائرها، كان الظلام في الخارج قد ابتدأ بالانتشار فأخذت النجوم في الظهور. وجعله هذا يتذكر كيف كان يتمشى مع فلور خلف منزلها، وذلك منذ يومين فقط، لقد كانت صحبته في خروجه حتى الباب الذي كان ينفذ إلى الحديقة. وكانا قد أمضيا معاً ساعتين تقريباً في غرفة الجلوس.

وعندما وصلا إلى الباب الخارجي، سألها بغضب عنيف: «كيف يمكننا ان نستمر بهذا الشكل؟ دعينا نتزوج على الفور.»

فهمست: «وهذا ما أريده، ولكن، علينا أن... ننتظر... لا بد من... ذلك.»

وكان هذا نقاشاً يدور بينهما حيناً بعد حين، وقد علم الآن أنها كانت فقط تنتظر لترى ما إذا كان الدوق سيعيش أو يموت. وأخذ يتمتم حانقاً.

وفجأة، سمع صوت انصفاق باب. وشعر بأن شخصاً دخل الغرفة الملاصقة لغرفته. وكان الخان قديماً ما جعله يسمع بوضوح صوت خطوات شخص يركض في الغرفة. ثم سمع الشخص ذاك يلقي بنفسه على السرير محدثاً قرقعة عالية. فاستدار مبتعداً عن النافذة وهو يفكر في أن شاغل الغرفة تلك لا بد انه رجل منهك القوى إلى درجة أصبح معها غير قادر على النوم بهدوء.

وتمنى ألا يحدث جاره هذا، ضوضاء تمنعه من النوم، وكان على وشك أن يخلع سترته، عندما سمع صوتاً أدهشه، لكنه واضح تماماً، ذلك أن القادم الجديد كان يبكي، ولم يكن البكاء هادئاً، أو رقيقاً، وإنما كان يائساً عنيفاً.

واستمع الماركيز مرة أخرى، فتأكد من أن سمعه لم يخطئ.

المرأة فقط بمقدورها ان تبكي، إذا اصابتها نكبة، بمثل ذلك الشكل المحزن المؤثر.

لم يكن البكاء بشكل صراخ وهستيريا، وإنما كان عبارة عن شهقات تنبيء عن تعاسة بالغة، ودون وعي منه، إندفع نحو باب غرفته يفتحه، ليسير بعد ذلك عدة خطوات في الممر وتوقف بعدها امام باب الغرفة التالية يقرعه.

كان قرعه الباب في منتهى الخفوت وكأنه لم يكن يريد ان يسمعه أحد. ولم تتوقف الشهقات، فأدار مقبض الباب، وعندما فتحه وجد الغرفة نسخة ثانية عن غرفته، وعلى

واثق من أنه لم يكن ليحب أن يراك حزينة كما أنت الآن.»

مسحت الفتاة عينيها وقالت: «ولكن أبي ميت الآن، ولكنه يتفهم سبب... حزني هذا.»

فقال: «بما أن أباك ليس هنا لينصحك، لماذا لا تخبرينني بأمرك، ربما بإمكاني أن اساعدك.»

فأبدت الفتاة إشارة تنبىء عن العجز، ثم قالت: «ليس بإمكان أحد... أن يساعدني ما عدا اللايدي هورنكليف... وهي قد رفضت...»

فسألها: «رفضت ان تفعل ماذا؟»

فأجابت: «رفضت أن تدع... بيتر يبقى معي؟» وبدا وكأن الكلمات تتفجر من بين شفتيها، ثم قالت بصوت خائف قلق: «كيف... يمكنني أن ادعهم يرسلونه... إلى ملجأ الأيتام... لأن لا حل سوى ذلك... بينما أنا كنت وعدت أمي بأن أرعاه... ولكن ليس لدي نقود... وهي لن تدفع لي أجراً لما... أقوم به.»

لم يستطع أن يفهم شيئاً، فقال: «لماذا لا تبدأين القصة من أولها؟ قبل كل شيء اخبريني عن اسمك وماذا تفعلين هنا، ولماذا لا تسمح لك اللايدي هورنكليف ببقاء بيتر معك؟»

وبجهد بالغ، تمالكت الفتاة نفسها، ومسحت عينيها ثم نظرت إليه قائلة: «ربما... ما كان لي أن... اتحدث إليك بهذا الشكل.»

فابتسم الماركيز بشكل مطمئن، ثم قال برقة: «ومن سيعلم بذلك غير النجوم، طبعاً؟»

فقالت: «انك لن... تفهم، ولكن، كما قلت انت... لا احد سيعلم.»

فسألها: «ما اسمك؟»

«إنه... ليلا هورن.»

فرفع حاجبيه وسألها: «هل أنت من أقارب اللايدي هورنكليف التي اشتغل عندها؟»

«لقد كان أبي ذا قرابة بعيدة... لزوجها.»

«وقلت إن أباك ميت؟»

«لقد مات أبي متأثراً بجراحه... منذ عامين تقريباً.»

فسألها: «من جراحه؟»

فأجابت: «لقد كان أبي يعمل في البحرية تحت إمرة اللورد نيلسون، وفي النهاية أصبح قبطان سفينته.»

وبدت في لهجتها نبرة زهو لم يغفل الماركيز سماعها.

«ثم جرح؟»

«لقد واجه سفينتين فرنسيتين فهزمهما معاً، ولكن قذيفة مدفع مزقت ساقه... فكاد يموت...»

وأطلقت شهقة قصيرة قبل أن تتابع قائلة: «لقد قمنا، أنا وأمي، بتمريضه... فعاش بعد ذلك حوالي العامين.»

فسألها: «وأين كنتم تسكنون؟»

فأجابت: «لقد ذهبنا إلى أماكن كثيرة، لقد وقعت أمي في غرام أبي عندما كانت سفينته بدورية حراسة على الشاطىء الاسكوتلندي.»

ساد صمت بدت معه وكأنها كانت تتذكر ما كان حدث في الماضي إلى أن قال الماركيز: «وهكذا تزوجا؟»

«نعم، ولكن... بعد أن كان والد أمي قد منعها... من

الزواج... ببحار... وقال إنه، إذا هي تزوجته فلن يتكلم معها أبداً بعد ذلك.»

فقال الماركيز وقد شعر بأنه قد سمع بهذه القصة من قبل: «وهي قد تمردت عليه.»

فأومأت ليلا برأسها: «لقد تزوجا، وتبعت أمي أبي إلى كل مرفأ كانت سفينته تصل إليه. إنني أتذكر أنه كان لنا بيت صغير في بورتسماوث وآخر في بلايموث. ولكنه، بطبيعة الحال، كان يغيب في البحر شهوراً، وكانت أمي... دوماً تخاف عليه من أن يقتله... الفرنسيون.»

فسألها: «وماذا حدث بعد أن جرح؟»

أجابت: «لقد سرح من الخدمة، وعندما عاد إلى انكلترا، لم يكن لدى أمي فكرة عن أي مكان يسكنون فيه، وهكذا كتبت إلى السير لورنس هورن والذي كان يمت إليها بقرابة بعيدة.»

وكان الماركيز يستمع إليها باهتمام وهي تتابع: «لقد كان يعيش في قرية صغيرة جميلة في اقليم كنت، وبلغ من تأثره لوفاة أبي أن منحنا منزلاً صغيراً في أملاكه كنا فيه سعداء جداً.»

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

فحولت ليلا نظراتها عنه، ثم قالت بصوت مختلف اللهجة: «لقد... تزوج السير لورنس.»

فسكت الماركيز يفكر في جوابها، بينما تابعت هي: «إنه لم يكن قد تزوج من قبل... لأنه كان قد خدم في الهند وأنحاء أخرى من العالم، فلم يجد وقتاً ليستقر.»

وابتسمت للماركيز بكآبة وهي تضيف قائلة: «ولكنه كان متشوقاً ليكون له إبن.»

فقال: «وهكذا تزوج السيدة التي أنت الآن معها.»

فأومأت ليلا برأسها: «لقد كانت جميلة جداً، هذا إلى أنها... غنية جداً جداً.»

«ولكن من المؤكد انها أصغر منه كثيراً.»

«نعم، بالطبع، ولكن أباها، السيد كليف، كان قد كون ثروة طائلة من الشحن بالسفن.»

وأدرك الماركيز بالبديهة، وكذلك من الطريقة التي كانت هي تتكلم بها، أدرك كيف تكونت تلك الثروة.

كانت نفس الطريقة التي استعملها عدد من كبار أرباب التجارة في ليفربول، ألا وهي نقل الناس من افريقيا إلى أميركا.

وكان هذا شيئاً يشعر هو نحوه ببالغ المقت والكراهية، فهو كان يعلم أن أصحاب السفن كانوا يكونون ثروات طائلة من وراء اختطاف الزنوج التعساء، من رجال ونساء وأطفال، الذين يعيشون قرب الشواطىء، ومن ثم ينقلونهم في عنابر السفن النتنة الكريهة الرائحة إلى العالم الجديد عبر المحيط.

وكانت اميركا تحتاجهم للعمل في حقول القطن. وقال الماركيز: «وهكذا، أراد السيد كليف ان تصبح ابنته الغنية الجميلة، محترمة.»

فسألته: «ولكن.. كيف عرفت ذلك؟»

فأجاب: «هذا شيء سبق وحدث من قبل. واظنه اصر على إضافة اسمه إلى الاسم هورن.»

«لقد اخبرتني أمي فعلاً، بانه كان شديد الإصرار على ذلك... وأنا أعلم كذلك أن أبي صدم لهذا.»

فسألها: «وهل انجبت اللايدي هورنكليف الابن المرغوب فيه؟»

فهزت ليلا رأسها: «كلا... لم تنجب ابناً... واظن ان هذا هو السبب الذي جعلها... لا تريد أن... أبقي بيتر معي.»

فسألها: «وهل بيتر هو أخوك؟»

«نعم. إنه في الثامنة فقط من عمره... وهو صبي صغير رائع. ان كل انسان يحبه... كما أنه لا يزعج احداً.»

فسألها: «وماذا حدث لبقية أسرتك، لأمك مثلاً؟»

«لقد توفيت أمي... منذ ثلاثة أشهر وذلك بعدما قررت ابنة العم أفريل أن تخلع ثياب الحداد لأنها أرادت ان تذهب... إلى لندن.»

وتغير صوت ليلا وهي تقول: «كان الأمر... فظيعاً، لم استطع أن اصدق كيف حدثت الأمور بتلك السرعة. بعد جنازة... أمي مباشرة، اخبرتني ابنة العم أفريل انها ستبيع املاك زوجها ومن ضمنها البيت الذي نعيش فيه والذي كنت اظنه ملكي.»

فقال الماركيز: «فاصبحت إذن دون مأوى.»

«لقد قالت بأنني، حيث انني اعرف الخياطة جيداً، يمكنني ان اعيش معها بصفة خياطة مرافقة.»

تنهدت وهي تتابع قائلة: «اخبرتني بأنها سترحل إلى لندن على الفور، وان علي أن... أرحل معها، لقد ظننت أن ذلك سيكون لفترة قصيرة فقط... ولهذا تركت بيتر عند مربية متقاعدة كانت تعلمه.»

ونظرت إلى الماركيز لترى ان كان مهتماً بكلامها، ثم تابعت تقول: «لقد قالت ابنة العم افريل انها ستشتري منزلاً جديداً في الريف سيكون أوسع بكثير من المنزل الذي باعته. ولهذا السبب نحن ذاهبون إلى هيرفورد. لكي نبحث عن مثل هذا المنزل. كنت أظن انني وبيتر سيكون لدينا كوخ نسكن فيه هناك... ولكنها الآن غيرت رأيها.»

وفكرت ليلا لحظة قبل ان تضيف قائلة: «انها، في الواقع، لم تتكر قط اننا... سنعيش معاً... ولكنني لم اتصور لحظة... بأنها ستفرّق بيننا.»

فقال الماركيز: «وهذا ما علمته هذه الليلة.»

«لقد كانت تتحدث عن المنزل الذي نحن ذاهبون لرؤيته، وبدون تفكير، قلت أنا: «سيكون هذا رائعاً بالنسبة إلى بيتر، وأنا واثقة من أنه سيكون هناك جياد للركوب، وأشياء كثيرة أخرى يقوم بها في الريف.»

وسكتت ليلا لاختناق صوتها بالدموع.

فسألها الماركيز: «وما الذي قالته ابنة عمك؟»

«لقد قالت:... بيتر؟ ماذا تعنين بقولك... بيتر؟ ليس لدي مكان لصبي في سن الدراسة لا يستطيع تحصيل معيشته.»

وتلاشى صوت ليلا مرة أخرى ورفعت يديها إلى عينيها.

وبعد لحظة، عادت تقول: «كيف... كيف بإمكاني ان اخسر بيتر... وكيف سيذهب إلى ملجأ الأيتام... حيث لن يجد من يحبه كما... أحببناه أنا وأمه وأبوه.»

وعاد صوتها يختنق بالدموع.

وعادت إلى الحديث بنفس اليأس الذي كانت تتحدث فيه عند أول سماع الماركيز لها.

ولم يستطع أن يتصور شخصاً اكثر منها تعاسة واستدراراً للعطف.

وقال بعد لحظة: «انتي أدرك كم هذا محزن بالنسبة إليك، ولكن، افرضي أن بامكاننا ان نفكر في إيجاد حل لهذا الأمر؟»

فهمست تقول: «ليس هناك حل، ذلك أنه ليس لدي نقود... ولا مكان نذهب إليه.»

فسألها: «أليس لديك أقرباء؟»

«لقد كان أبي يقول دوماً ان أقاربه إما يعملون في البحر، وإما يحاربون في... بلاد بعيدة.»

«واقرباؤك من أمك؟»

«كما سبق واخبرتك، لقد قاطعوها تماماً بعد زواجها من أبي، فأبوها، والذي كان زعيم قبيلة، غضب جداً جداً، لأنها تركت سكوتلندا.»

فساد صمت رفعت ليلا بعده رأسها وقالت: «اشكرك لاستماعك لي. ولكنك ترى ان ليس هناك... ما يمكنني عمله.»

وكان صوتها يستدر العطف، بينما في نفس الوقت، كان الماركيز يفكر في أن اللايدي هورنكليف هي بنفس انانية وخداع فلور. فكل ما تبغيه هو اسم محترم وذلك بالزواج من رجل بارز.

ولكنها غير مستعدة لمساعدة أقاربه رغم ثرائها الطائل الذي يمكنها من ذلك.

وانزعج من هذه التصرفات، وقد بدت في عينيه لمحة من السخرية.

قال لها: «والآن، اسمعي.»

ودفعتها لهجته الحازمة إلى رفع رأسها والنظر إليه.

قال لها: «إنني واثق من انك إذا فكرت في الأمر ملياً، فستجدين أن بإمكانك القيام بعمل ما، يمكنك من تحصيل ما يكفي لتعيشا أنت وبيتر.»

فتمتمت ليلا قليلاً، ولكنها لم تقاطعه، بينما كان هو يتابع قائلاً: «وإلى ان يمكنك ذلك، فإن عندي كوخاً فارغاً يمكنك أن تسكني فيه مع بيتر إذا استمرت ابنة عمك في رفضها ضمه إليك.»

فحملقت ليلا به وكأنها لا تصدق ما تسمع، ثم قالت: «هل تعني حقاً ما تقوله؟ هل لديك حقاً كوخ فارغ؟»

وكان الماركيز واثقاً من أن لديه في ممتلكاته عدة اكواخ، فقال: «إنني واثق تماماً، وسكنك فيه يجعلك تتنفسين بارتياح على الأقل.»

عند ذلك شبكت يديها معاً، ثم قالت: «كم انت رقيق... شهم... هل أنت واثق تماماً من ان بإمكانك ان... تتكلف ذلك؟»

فقال: «واثق تماماً، وعلى كل حال، فأجرة الكوخ الصغير ليست كبيرة.»

فقالت: «اعدك بأن احاول تحصيل ما يكفي من النقود لأسدد لك مالك، فأنا خياطة ماهرة، وأنا واثقة من أن هناك من سيشترون ما اخيطه، هذا إذا وجدت وقتاً أبحث فيه عنهم.»

فقال الماركيز: «إن الكوخ هو لك ساعة تشائين. والآن نامي ولا تقلقي بعد الآن.»

فصرخت: «لا أستطيع تصديق ما تقوله. عندما تركت ابنة العم افريل كنت من الحزن بحيث ركضت من الغرفة... شاعرة بأن كل العالم قد خذلني.»

فقال الماركيز: «دعي عنك هذا الحزن الآن، وتذكري أن في نهاية هذه الرحلة، سيكون ثمة مكان لك ولبيتر معاً. ان كوني في الغرفة المجاورة لك هي صدفة جيدة جداً، وتذكري أن هذا سر بيننا.»

«طبعاً، وهل أستطيع أن اكون من الشر وقلة الأدب بحيث اخون ثقة انسان شهم مثلك... بي؟»

فقال: «كلا، إنني واثق من انك لن تفعلي هذا.»

ووقف وهو يقول: «إذهبي إلى فراشك وتذكري أن الشمس ستشرق غداً، وسيكون بيتر في انتظارك لتأخذيه إليك.»

فقالت ضارعة: «عدني انك لن... تختفي، وانك ستكون... هنا غداً لكي تخبرني عن مكان... كوخك ذاك.»

فضحك الماركيز وقال: «إنني لن اختفي، وسنعود إلى الحديث مرة أخرى عندما تسنح الفرصة، ولكن يجب ان تحاذري من ألا يعلم أحد بانك كنت تتحدثين مع مجرد حوذي.»

فقالت: «بل انت أرق واكثر الحوذية تفهماً في العالم.»

فابتسم الماركيز لها، ثم عبر الغرفة متجهاً إلى الباب. وعندما وصل إليه، قالت ليلا: «اشكرك... اشكرك مرة أخرى.»

وخرج الماركيز من الغرفة، ثم نظر بحركة تلقائية إلى الممر ليرى ان كان أحد قد رآه.

وإذ لم يكن هناك أحد، دخل إلى غرفته، بسرعة، وأخذ يفكر كيف ان ما حدث بينه وبين الفتاة سيثير فضول تشارليس عندما يحدثه به.

وقبل ان يستسلم للنوم، قال يحدث نفسه بأن ما حدث معه في أول ليلة له في هذه الرحلة، هو أمر لم يكن يتوقعه قط.

الفصل الرابع

أخرجت الأمتعة لتوضع في مؤخرة العربة.

وكان الماركيز قد علم من جاك أن هذه هي آخر ليلة يمضونها في الخان.

وقال: «أخيراً سنصل هذا النهار إلى المنزل الكبير الذي سنمكث فيه، وأننا لن ننام في المتخّت مرة أخرى.»

فسأله الماركيز بعطف: «هل كان نومكم فيها متعباً؟»

فأجاب باشمئزاز: «لم يكن القش الذي رقدنا عليه كافياً، وكان مليئاً بالحشرات.»

وما أن أوشك الماركيز أن يتسلق العربة ليجلس على الصندوق، حتى خرجت ليلا من الباب.

ورآها في ضوء النهار، أجمل مما كانت في الليلة الماضية.

نظرت إليه بخجل إنما نظرة عرفان الجميل في عينيها كانت واضحة له.

وتعمد هو أن يبتسم لها، بينما وضعت هي داخل العربة شيئاً كانت تحمله بين ذراعيها.

ثم وقفت تنتظر خروج اللايدي هورنكليف.

وعندما خرجت هذه، كانت تبدو كالعادة رائعة. ولاحظ الماركيز أنها كانت تضع قبعة مختلفة عن تلك التي كانت تضعها أمس، وذلك رغم قلة الأمتعة التي يحملونها.

وكان صاحب الخان يضحك ويفرك يديه أمامها وهو

يهتف معبراً عن الشرف الذي ناله بتشريفها الخان، ولم تجب اللايدي هورنكليف.

وما لبثت أن دخلت العربة، وانطلق الماركيز. وكان، قبل ذلك، قد نظر في ورقة التعليمات التي لديه، بعد أن قال جاك إنها آخر ليلة يمضونها في خان قبل الوصول إلى المنزل الكبير، وشعر بالارتياح وهو يتأكد من حقيقة ذلك.

سيكونون في اليوم التالي في كراوستوك تاورز. وكان يعلم أن الوصول إليه سيكون بسلوك الطريق إلى شمال كسفورد.

وكان هذا يعني أنه ليس بعيداً عن أملاكه. ومن هنا، كان ثمة خطر من أن يراه من يعرفه.

ولم تذكر التعليمات التي لديه اسم مالك المنزل ذاك.

وأعمل ذهنه علّه يتذكر إن كان يعرف شخصاً باسم كراوستوك.

وبعد أن قطعوا مسافة من الطريق، سأل جاك الذي أجابه قائلاً: «إن اسم الرجل هو كراو وبما أنه صديق لسيادة اللايدي، يمكنك أن تدرك أنه رجل ثري.»

وهنا، جاءه جواب ما استعصى عليه تذكره.

لقد كان سمع باسم السيد بيرسي كراو قبل أن يصبح هذا بالغ الثراء.

كان رجلاً عصامياً. وكان قد حصل على لقبه هذا بنيله وسام الفروسية، وذلك لمساهمته السخية في تمويل الحزب الحاكم.

وقد اعتبر كثيرون هذا أمراً مشيناً، ولم يترددوا في التصريح بذلك جهاراً.

وقد حاول بيرسي كراو أن يصبح عضواً في النادي، ولكنه فشل.

وإذ خاب أمله في أن يتقبله مجتمع لندن الراقي، انسحب للعيش في الريف حيث اشترى هناك املاكاً واسعة كانت تعود إلى أحد النبلاء الذين أفقرتهم الحرب وقتل ابنه أثناء محاربته الفرنسيين.

وقد غير السيد بيرسي اسم المنزل على الفور.

وتذكر الماركيز ما كان سمعه عن سعيه إلى أن يصبح السيد البارز في الأرياف. وأخذ يساهم أيضاً، ويسخاء في كل مشروع خيري. وعلى كل حال، فقد تقبله عدد قليل من الجيل الحديث في الإقليم. أما الجيل الأكبر سناً، فقد هزوا رؤوسهم رافضين كل دعوة تصلهم منه.

حمد الماركيز نفسه وهو يتابع السير بأنه ضمن، على الأقل، عدم وجود أحد يعرفه في ذلك المنزل.

توقفوا لتناول الغداء، وكالعادة، أحضر الماركيز أنواعاً طيبة من الطعام بعثت السرور في نفس بن والآخرين.

وصلوا إلى ضواحي اكسفورد حوالي الساعة الخامسة عصراً. وأوقف الماركيز العربة أمام خان هناك كان ما يزال يتذكره، ويدعى الأجراس الثلاثة.

وعندما دخل الفناء، وجد أن الاسطبل كان ممتلئاً تقريباً، ليس بجياد المسافرين الآخرين فقط، وإنما بجياد اللايدي هورنكليف الأربعة والتي كانت ارسلت قبلهم بيومين.

ورأى الماركيز أنه قد حان وقت تغيير جياده بعد أن أرهقت في هذه الرحلة.

ونظر السائسون الأربعة الذين كانوا بالانتظار مع مجموعة الجياد الجديدة، نظروا إلى الماركيز بدهشة.

فسألهم: «أرجو أن تكون الجياد التي معكم بنفس جودة هذه الجياد.»

فابتسم الرجل الذي وجه إليه الكلام، وقال: «إنها أفضل الجياد. فأنا أحب الركوب ولا أختار سوى الأفضل.»

«حسناً، خذ هذه الجياد إذن، وانتبه إليها فهي تستحق الراحة.»

فقال الرجل: «سأهتم بذلك. إنني أحب اكسفورد. فقد كنت هناك من قبل.»

أوشك الماركيز على أن يقول نفس الشيء، ولكنه عاد فأدرك خطأه. وقرر أن لا ينضم إلى السائسين أثناء الغداء، وأن يتناول غداءه في مكان آخر على حسابه الخاص.

وتذكر نزلاً جيداً على مسافة قريبة كان موجوداً عندما كان يدرس في الجامعة.

على كل حال، فقد كان اهتمامه الأول هو الاطمئنان على راحة الجياد وإطعامها. ثم دخل إلى الخان يطلب غرفة نوم. ولكن صاحب الخان اعتذر بأن الغرف جميعها تقريباً، مشغولة.

وعلى كل حال، فقد وجد غرفة صغيرة غير حسنة الفرش كتلك التي كان شغلها الليلة الماضية، ولكنها كانت أفضل من النوم على المتخت والتي كان واثقاً من أنها لا بد مزدحمة هذه الليلة.

طلب من الخادمة أن تحضر له ماء ساخناً اغتسل فيه ثم

ارتدى قميصاً نظيفاً، وبعد ذلك، غادر الخان متجهاً نحو النزل الذي سرعان ما عثر عليه.

كان صغيراً ولكن الطعام كان لا بأس به. وتمنى لو كان لديه ما يكفي من الوقت لزيارة الجامعة التي تعلم فيها ونال منها شهادته التي أدخلت على نفس والده السرور البالغ.

وعندما عاد إلى خان الأجراس الثلاثة كان الوقت متأخراً.

وما أن وصل إلى الباب حتى كان صاحب الخان يسرع إليه قائلاً وهو يشير إلى غرفة جلوس اللايدي: «إنهم يريدونك هناك.»

وكان الماركيز يظن أن لا بد أن تكون اللايدي هورنكليف قد أوت إلى فراشها الآن.

وهكذا تحول، بشيء من الكراهية، نحو غرفة الجلوس لقد كان يضايقه أن يقف متأدباً ليستمع إلى صوتها الحاد، في الوقت الذي كان يريد فيه أن يأوي إلى فراشه.

وفتح باب الغرفة، وإذا بالدهشة، تتملكه وهو يجد أن من ينتظره ليس سوى ليلا.

كانت جالسة على كرسي قرب المدفأة، وعندما رأته قفزت واقفة، ثم تقدمت نحوه وهي تقول: «عندما سمعت أنك... لست في الخان، تملكني خوف شديد من أن تكون... قد رحلت.»

فأجاب باسماً: «كلا، بل ما زلت هنا. ولكن ربما من الخطأ، بالنسبة إليك، أن تقابليني هنا.»

وكان يفكر أثناء ذلك فيما قد يجره رؤية الخدم ذلك إلى اختلاق الأقاويل عنهما.

فقالت بسرعة: «لست أنا... التي أرسلت بطلبك. فأنا لا أجرؤ على ذلك.» فرفع الماركيز حاجبيه بينما تابعت هي تقول: «إنها ابنة العم افريل. إنها تريد أن تراك، وعندما أخبرتها انك في الخارج، قالت إن عليك أن تصعد إليها حال قدومك.»

فقال الماركيز بلهجة متهكمة: «وما هو خطأي الآن؟»

قالت: «لا أدري... ولكن... لا يبدو عليها الغضب.»

قال: «هذا يدعو إلى الارتياح على كل حال.»

وكان أثناء حديثه قد سار نحو المدفأة حيث جلس على كرسي هناك، بينما جلست هي على كرسي آخر.

سألها: «أخبريني عن نفسك. هل أنت سعيدة الآن؟»

فأجابت: «سعيدة جداً جداً، ولكنني ما زلت.. لا أصدق ان شخصاً يمكن أن يكون... بهذه الشهامة.»

«قد تغير ابنة عمك رأيها ويبقى بيتر معك.»

ساد السكون لحظة كانت ليلا اثناءها تنظر إلى المدفأة، قبل أن تقول: «ربما تظنني... حمقاء... ولكن، إذا كان كوخك موجوداً... فأنا واثقة من اننا، أنا وبيتر... سنكون أسعد حالاً هناك منا هنا معها.»

فكر الماركيز في كلامها هذا، لحظة، ثم قال: «ربما ليس الأمر مسألة سعادة، ولكن ما يمكننا أن نسميه تسهيلات. فمن المؤكد أن اللايدي هورنكليف إذا هي اشترت ذلك المنزل الكبير، فهناك سيكون، حسب رغبتك، جياد يركبها بيتر وطبعاً كثير من الطعام الجيد له.»

لم تجب ليلا، وتابع هو يقول بعد لحظة: «ألا توافقينني على هذا؟»

أجابت: «ليس الأمر كذلك، ولكن ابنة العم افريل صعبة بالنسبة إلى الأمور الصغيرة.»

انتظر الماركيز ما ستقوله، فتابعت بعد لحظة: «إن الخدم الذين خدموا ابن العم لورنس سنوات طويلة، أخذوا يشكون بعد زواجه، من انهم لم يعودوا يحصلون على الزبدة الجيدة، أو الحليب الطازج. إن كل هذا يأتي من المزرعة، وفي رأيهم أن لهم الحق في أشياء كهذه.»

فسألها: «هل تريدين أن تخبريني بأنها تعد القروش؟»

أشاحت بنظراتها عنه: «ربما ما كان لي أن... اتحدث اليك... عن هذا. ولكنها تمتعض إذا أنا ملأت طبقي بالطعام، أو أكلت كعكة مع الشاي. أنا لا يهمني هذا... ولكن سيكون الأمر صعباً... بالنسبة إلى بيتر، أن افسر له لماذا لا يمكنه الحصول على ذلك ما دام هذا موجوداً.»

فقال الماركيز: «لقد سمعت عن مثل هذا البخل عند بعض الناس. وقد صادفت في حياتي بعض البخلاء، ولكنهم كانوا جميعاً من الرجال.»

تنهدت ليلا: «إنها هكذا. فهي ثرية جداً، ومع ذلك تهتم لمثل تلك الأشياء الصغيرة.»

قال الماركيز: «حسناً، إن الكوخ ينتظركما أنت وبيتر.»

قالت ليلا وهي تتنهد بارتياح: «هذا ما كنت أرجو أن تقوله... لقد ابتدأت بتطريز قطعة موسلين لأجعل منها منديل يد بالغ الجمال. ولكن ليس لدي وقت كاف... لهذا العمل.»

اظنك تقومين بعمل خادمة خاصة للايدي بجانب كونك مرافقة وخياطة خاصة لها.»

فأطلقت ليلا ضحكة قصيرة: «هذا صحيح، ولكن خادمة اللايدي الخاصة الحقيقية تنتظرنا في المنزل، كراوستوك تاورز.»

وإذ تذكر أن مخدومته في انتظاره، وقف بسرعة، وهو يقول: «أظن من الأفضل أن أصعد إليها. ويمكنك أن تريني الطريق إلى غرفتها. وإن كنت أفضل البقاء هنا والتحدث معك.»

فقالت بصوت ينضح صدقاً: «لقد كان التحدث معك... شيئاً رائعاً... حتى وإن كان ذلك لعدة دقائق.»

سار الماركيز نحو الباب، وعندما وصل إليه، قال: «أظن من الخطأ أن يرانا أحد معاً. امكثي هنا إلى أن أصعد السلم، ثم انسلي صاعدة إلى غرفتك.»

قالت: «نعم، هذا صحيح. لقد كانت حماقة مني... ألا أفكر في هذا...»

سألها: «أخبريني فقط أين تقع غرفة سيادتها.»

أخبرته أنها في الطابق الأعلى وباب غرفتها هو السادس من قمة السلم.

غادر الماركيز غرفة الجلوس مغلقاً الباب خلفه، ثم صعد السلم الخشبي الذي كان يقرقع تحت قدميه.

عدّ الأبواب بعناية، ثم قرع الباب السادس. وسمع صوت اللايدي هورنكليف يجيب: «أدخل.» ففتح الباب.

ودهش إذ وجدها جالسة إلى منضدة الزينة مرتدية معطفاً منزلياً مزخرفاً. وعندما دخل، أدارت رأسها إليه.

كان شمعدانان قائمين على كل جانب من منضدة الزينة.

قالت له: «أغلق الباب، يا ليون.»

ففعل، ثم وقف في مكانه.

كان قد انتبه، وهو يقوم بذلك، إلى أنها كانت تقيّمه بنظرات متفحصة، وذلك بنفس الطريقة التي يتفحص فيها الرجل حصاناً معروضاً للبيع.

ثم قالت بصوت ناعم نسبياً: «أحببت أن أخبرك كم كانت قيادتك للجياد حسنة هذا النهار، ولأقول لك كم أنا مسرورة لدخولك خدمتي.»

وكان لتغير طريقة كلامها معه كما كانت عليه من قبل، أن جعل الماركيز ينظر إليها بدهشة دون أن يستطيع النطق.

وبعد لحظة، قال: «هذا من كرم أخلاق سيادتك.»

فاستدارت إليه قائلة: «إنك شاب رائع المظهر، يا ليون. ألم تجد عملاً أفضل من أن تقود الجياد؟»

أجاب: «إنني أستمتع بذلك، يا سيدتي. إننا على الأقل، في الهواء الطلق دوماً.»

قالت: «قيل لي انك خارج الخان. أين كنت؟ وهل هي جميلة جداً؟»

فضحك الماركيز: «ليس الأمر هكذا، يا سيدتي، فأنا إنما ذهبت إلى نزل محلي لآكل شيئاً. وأظن سيسيك أن تعلمي أن مستخدميك لا يطعمونهم جيداً.»

أجابت بصوت خافت: «سأتذكر أن هذه رغبتك.»

وعندما نظرت إليه، أدرك الماركيز ما تريده.

وللحظة، احمرت الدنيا أمام عينيه وقد ثار به الغضب.

فقد كانت هذه خدعة أخرى. وكانت معدّة بمهارة بالغة كعشرات غيرها مما تستعمله النساء لمصلحتهن.

ومرة أخرى، شعر بالغضب يتملكه من فلور ومن هذه المرأة التي توجه إليه نظرات خبيثة.

وصمم على أن يقول لها رأيه فيها.

ولكنه ما لبث أن تذكر أن مثل هذا العمل سيفقده وظيفته دون شك.

وأخذ يفكر بطريقة للنجاة، بسرعة رجل تعود على مواجهة الأخطار.

وفجأة، انبثقت الفكرة في ذهنه كوميض البرق، وكانت اللايدي هورنكليف الآن قد نهضت عن مقعدها ثم سارت نحوه.

عند ذلك هتف: «جرذ، يا سيدتي... جرذ دخل تحت سريرك.»

واتجه، وهو يتكلم، نحو السرير.

وصرخت اللايدي هورنكليف: «جرذ، آه... أقتله. لشد ما أكره الجرذان.»

وصرخت مرة أخرى وصعدت على الكرسي الذي كانت جالسة عليه.

ثم أخذت تراقب ما يفعل بعينين مذعورتين خائفتين.

انحنى الماركيز ومد يده تحت السرير.

وشعر بنعومة فردة خف مخملي فقبض عليها ثم جعلها تحت جانب سترته وهو يحركها من الداخل بحيث تبدو وكأنها تتحرك.

ثم نهض واقفاً وهو يشد بإحدى يديه سترته على جسمه.

وعندما رأت اللايدي هورنكليف تشنج يده على صدره، صرخت قائلة: «أقتله. أقتله.»

استدار الماركيز نحو الباب حيث استطاع فتحه بصعوبة بيد واحدة، بينما يشد على الجرذ الذي كان يتحرك داخل سترته، إلى أن أصبح في الممر خارج الغرفة، فأغلق الباب خلفه.

ولما لم ير أحداً في الخارج أحسن في مشيته، وسوى من سترته وهو يتجه إلى السلم.

وكان يحمل في يده فردة الخف المخملية الوردية اللون، وهو يتساءل عما إذا كان عليه أن يلقي بها بعيداً.

ولكن ما لبث أن خطر في باله أن افتقادها في الصباح قد يوقع ليلا في المتاعب، إذ كان المفروض فيها أنها تتولى حزم كل ملابس اللايدي بنفسها.

وهكذا ذهب إلى الردهة، وعندما رأى الحارس الليلي قال له: «هل لك أن تأخذ هذه إلى غرفة الآنسة هورن مرافقة اللايدي هورنكليف؟ أخبرها أنها تركت خطأ في العربة وأنتي أظنها قد تحتاجها.»

فوعده الحارس بأن يأخذها إلى ليلا حالاً.

وعند ذلك، صعد الماركيز إلى غرفته وهو يبتسم. لقد سبق وأنقذه من المتاعب في حياته أشياء كثيرة متنوعة، ولكن لم يحدث قط من قبل أن أنقذته فردة خف مخملية وردية اللون.

* * *

نام الماركيز جيداً إلى حد يبعث على الدهشة.

ولكنه، عند الصباح تملكه شيء من الشعور بالذنب وهو يرى بقية مستخدمي سيادتها منتفخي الأعين.

لقد كانوا بحاجة إلى الرعاية أكثر من الخيل نفسها. ولأن الطريق إلى كراوستوك تاورز كان قصيراً فإنهم لم يشرعوا في السير قبل العاشرة والنصف.

وابتدأوا يجتازون الحدود الفاصلة بين اكسفورد شاير وباكنغهام شاير.

كانوا الآن في منطقة الصيد التي كان الماركيز يعرفها جيداً.

ولكن الطرق كانت ضيقة وملتوية، حتى انهم، رغم تغييرهم للجياد، لم يستطيعوا أن يسيروا بنفس السرعة التي ساروا بها في اليوم السابق.

وبمهارة خارقة في القيادة، وصلوا إلى كراوتسوك تاورز قبل الساعة الخامسة.

كان منزل السيد بيرسي واسعاً جداً، إنما لا يحمل طابعاً متسقاً خاصاً.

فقد كانت أضيفت إليه المباني على مدى قرون وفكر الماركيز أن هذا، بالضبط، هو نموذج الأبنية التي تعجب متسلقي المجتمع.

إذ أنها تفصح لكل إنسان عن ثرائه.

ولم يكن ثمة شك في أن اللايدي هورنكليف كانت ضيفة عزيزة مكرمة.

فقد ركض السيد برسي بنفسه هابطاً الدرجات عند وصولها، حيث استقبلها وهو يخبرها بصوت عال على شيء من العامية، بمبلغ سروره لرؤيتها.

كما أنه نظر إلى ليلا وهو يقول لها إن لديه أشياء رائعة في انتظار وصولها.

قال إن هناك حفلة هذه الليلة ستجد بها الكثير من التسلية.

ولم يسمع الماركيز جواب ليلا على هذا الكلام.

هذا بينما كانت اللايدي هورنكليف تهتف مكتئبة بمبلغ ما تكبدته في هذه الرحلة من عناء.

لقد كانت، كما أخبرت السيد بيرسي، تتطلع إلى ما ستجده من ترفيه في قصره، بأمل بالغ.

فأجاب السيد بيرسي: «إن لدي عدداً من الأصدقاء على أتم الاستعداد للسهر معنا.»

أما الماركيز، فقد توجه نحو الاصطبل، شاعراً بالارتياح التام، ذلك أنه كان واثقاً من أنها لن تهتم به ما دام هناك اناس آخرون يسلونها.

وكان جاك على حق حين قال إنهم سيستضيفونهم داخل القصر. ولهذا لم تعد مسألة الرقاد في المتخت تستوجب الذكر.

وأعطي هو غرفة في الجناح الذي ينام فيه الخدم الذكور، والذي كان أبعد ما يكون عن قسم النساء الذي كان في الطابق الأعلى.

وكان الماركيز شاكراً ذلك حيث أن غرفته كانت الأفضل، وكان فيها بمفرده.

لاحظ، على كل حال، أن السيد بيرسي، رغم أنه لم يبخل بنقوده، إلا أن ذوقه كان يؤسف له.

وقد كان من الحكمة بحيث يأخذ معه رئيس الخدم الذي كان يعمل مع المالك السابق. فقد كان السيد الحالي محترماً ومن أفضل الرجال.

وأخذ الماركيز منه قائمة بأسماء المدعوين فعرف منها اسم واحد أو اثنين، ولكن لم يكن بينها اسم مقبول في النادي.

كما لم يكن من المحتمل أن يكون قد قابلهم في أي من البيوت الرفيعة التي كان يتلقى من أصحابها الدعوات التي كان يلبيها.

وعلم الماركيز أيضاً أنه سيتناول طعامه في غرفة مديرة المنزل. وهذا، باعتبار الخدم، منتهى الرفاهية.

وكان معظم الخدم مشغولين حيث أن الحفلة كانت كبيرة، كما أن كثيراً من الضيوف كانوا سيحضرون بعد العشاء. وقدّم العشاء للأعلى شأناً من الخدم بعد ساعة كاملة من تناول الضيوف عشاءهم في غرفة الطعام.

وكان الماركيز قد عرف من أمه، وذلك منذ وقت طويل، كيف يتصرف خدم قصرهم بالضبط في غرفة مديرة المنزل، كان رئيس الخدم يجلس عند طرف من المائدة بينما تجلس مديرة المنزل عند الطرف الآخر.

وكان خدم الزائرين، رجالاً ونساء، يأخذون أهميتهم من مراكز أسيادهم.

فخادمة الدوقة أو الماركيزة أو الكونتس، تجلس عادة إلى يمين مديرة المنزل، وسائقه إلى اليسار. وهكذا...

وهكذا وجد الماركيز نفسه إلى يسار مديرة المنزل، ولم يدهشه أن يجد أن الطعام كان بنفس جودة طعام الضيوف إن لم يكن أوفر كمية. فقد كان هناك خمسة أنواع من الطعام، وكان يقدمها لهم الخدم الأقل شأناً.

وكما كان يتوقع، ابتدأت الأحاديث تنحو نحو الغيبة والثرثرة التي كانت تدور في مجتمعات لندن.

ولكنها الآن، بدلاً من أن تأتي من القمة، تأتي من القاع.

تحدثوا عن افتتان الملك بالكونتيس أوف هيرتفورد.

ثم حدثهم خادم خاص بقصة عن أحد النبلاء الذين يعرفهم الماركيز جيداً. فقد رأوه ينزل من أحد المنازل على أنبوب المياه، وذلك لأنه لم يجد أمامه طريقة أخرى للهرب.

وانفجر الضحك بين الموجودين.

وإذا بخادمة اللايدي هورنكليف الخاصة، والتي لم يقابلها الماركيز سوى منذ دقائق قبل العشاء، إذا بها تقول: «لا بأس بأن أخبركم بأن سيدتي أثارت في لندن عاصفة من الإثارة حتى انها غطت على كثيرات من الجميلات هناك.»

قالت مدبرة المنزل: «أظنها جميلة جداً. على كل حال، فهناك سيدتان جميلتان طالما وددت التعرف إليهما.»

فسألها أحد الحاضرين: «ومن هما؟»

أجابت: «أحداهما هي اللايدي بليسينغتون أما الأخرى فهي الآنسة من... مونترو... نعم، إنها فلور مونترو. سمعت بأنها جميلة حقاً.»

وجمد الماركيز في مكانه عندما سمع اسم فلور.

عند ذلك قالت خادمة أخرى: «معك حق، يا سيدة فيلد، فهي رائعة الجمال. ويمكنني أن أخبرك، حيث أننا وصلنا للتو من لندن، أنها ستصبح دوقة قبل آخر هذا الصيف.»

فتصاعدت أصوات التعجب من حول المائدة ثم سألها شخص ما: «أتعنين أنها ستتزوج ذلك الفيسكونت ستينغتون؟»

أجابت الخادمة: «طبعاً ستتزوجه، وستكون دوقة بالغة الجمال، ولكن لن يهدأ له بال، وذلك كأي رجل آخر تزوجه.»

فسألتها السيدة فيلد: «لماذا تقولين مثل هذا الكلام؟ فهي ما زالت فتاة صغيرة.»

أجابت الخادمة: «صغيرة في العمر، ولكنها كبيرة في التجارب.»

فسألها واحد منهم: «ماذا تعنين بذلك؟»

أجابت بخجل: «هذا ما يقولونه، ولكن الحقيقة هي أنني كنت ساكنة بقرب أمها وأبيها، وعندما أصبحت في السابعة عشرة، كانت قد قامت بالكثير في ذلك الحيّ حيث كانوا يسكنون.»

فسألتها امرأة هناك: «هيا، حدثينا بما كانت تقوم به.»

«حسناً، كانت تتكلم مع شاب وسيم رائع يمتطي الحصان. ولا أدري ما كانت أمها ستقول لو أنها علمت ما كان يجري في الغابة.»

وشعر الماركيز بأنه لن يستطيع أن يسمع المزيد. فنهض واقفاً وهو يقول لمدبرة المنزل: «أرجو المعذرة، ولكنني أشعر بصداع وأريد أن ارتاح.»

فقالت: «آه، إنني آسفة يا سيد ليون، إذهب إلى فراشك، وأتوقع أن تشعر بتحسن في الصباح.»

فقال: «إنني واثق من ذلك، وأشكرك جداً.»

وسار نحو الباب، فلوح له رئيس الخدم بيده. وعندما خرج، قالت إحدى الحاضرات: «يا له من رجل بالغ الوسامة.»

أسرع هو مبتعداً، حيث خرج من المنزل من أول باب صادفه.

كان الألم من الصداع الذي يشعر به حقيقة، ولكنه كان يعلم أن الألم في قلبه كذلك.

فقد كان صدى ما قالوه عن فلور يتجاوب في مسامعه.

كيف أمكن أن يكون مغفلاً إلى هذا الحد؟

كيف أمكن أن تخطىء لديه قوة الادراك والملاحظة واعتقاده بأن ليس هناك من يمكن أن يخدعه؟

كيف أمكن لتلك البراءة الخداعة البادية عليها أن توقعه في أحابيلها؟

كذلك جمالها الذي كان يراه نقياً وبريئاً. ومرة أخرى، شعر نحو النساء بكراهية عنيفة، لا لشيء إلا لما تعرض له من خداع.

وتمشى داخلاً إلى الغابة الواقعة خلف الحديقة عله يريح مشاعره مما يضغط عليها.

كان القمر عالياً والنجوم تملأ السماء، ما جعله يشعر بشيء من التحسن، فبدأ غضبه يزول.

لقد كان تشارلس قال: (إن الزمن يشفي) والزمن يمر، وسينساها.

وحدث نفسه بأنه لن يثق بامرأة مرة أخرى. ولن يخدع أبداً مرة أخرى بهالة البراءة التي لا تلبث الحقيقة أن تكشف زيفها وقذارتها.

وابتدأ الليل والنجوم والأشجار يغمرون نفسه تدريجياً بالسلام والهدوء، فاستدار ليعود مختاراً طريقاً غير الذي أتى منه. ووجد بعد اجتيازه الأشجار، أجمة نفذ منها إلى

الحديقة التي كانت، ككل شيء آخر، قد أنفق عليها مبلغ كبير من المال.

كانت هناك شلالات إصطناعية تنحدر من صخور صوانية لتشكل جدولاً كان يتلوى بين النباتات الغريبة وخلال شجيرات مزدهرة إلى أن تصب في بحيرة تحف بها الأزهار.

وكانت الأصوات الآن تصل إلى مسامعه من النوافذ المضاءة.

وتمنى أن تكون ليلا سعيدة في الداخل.

ذلك أنها إذا كانت ستسكن في كوخ في قرية صغيرة، فمن غير المحتمل أن تحضر بعد ذلك حفلات كثيرة، كما أنه لن يكون لديها المال الكافي لشراء الملابس الجميلة لذلك.

وفكر في أنه من الأفضل لها لو أنها تمكنت من جعل الليدي هورنكليف تفكر بتعقل في الأمر.

وتابع سيره ملتزماً ظلال الأشجار التي تحيط بالمرج.

وإذا به ينتبه إلى وجود نافورة هناك كان ضوء القمر قد حول مياهها المتساقطة إلى ألوان مختلفة ذي جمال خلاب.

كان واقفاً في الظل ينظر إلى كل هذا، عندما سمع صوت امرأة تقول: «كلا... أرجوك... كلا.»

فأجاب رجل: «لا تكوني غبية. إنك جميلة وأنا معجب بك.»

«كلا... لا... أرجوك... يجب أن أعود إلى المنزل.»

نظر الماركيز من خلال الشجيرات، ثم أدرك أنه لم يكن مخطئاً.

كانت ليلا نفسها، بينما رجل متوسط السن متين البنية

نوعاً ما، يمسك بمعصمها، وكانت هي تتوسل ضارعة: «أرجوك... أرجوك... لا...»

وصدر عن ليلا صرخة خافتة، ولكن كان واضحاً أن الرجل كان قوياً، ما جعل مجهودها لتخليص نفسها منه غير ذي فعالية.

عند ذلك، تحرك الماركيز.

تقدم إليهما، وأمسك بالرجل من ياقته الخلفية.

وبقوة رياضي متمرن، رفعه عن الأرض ثم قذف به بعنف في النافورة.

فحملقت ليلا به وقد برقت عيناها في وجهها الشاحب وقال لها آمراً: «اهربي.»

وقبل أن تستدير طائعة، لمح بسرعة ابتسامة على شفتيها.

وفي الوقت الذي تمكن فيه مطاردها من تخليص نفسه من الماء وهو يشتم، كان هو قد اختفى عن الأنظار متراجعاً إلى ظلال الأجمه حيث كان من قبل.

وأثناء ذلك، كان يفكر في أن هذه قصة أخرى سيخبر بها تشارلس.

لقد كان صديقه على حق، فهذه الرحلة كانت مليئة بالمغامرات التي لم يكن يتوقعها.

ثم دخل إلى المطبخ، وهو يحدث نفسه بأن عليه أن يتحدث إلى ليلا حالما يجد وقتاً لذلك.

يجب أن يشدد عليها بألاّ تخرج أبداً وحدها مع رجل غريب إلى الحديقة، هذا إذا لم تكن تريد لهذا أن يحصل مرة أخرى.

وعاد إلى ذاكرته ما سمعه عن فلور، فأخذ يتساءل عما إذا كان قد خدع مرة أخرى.

ربما ليلا ليست بالبراءة التي تبدو عليها.

ولكنه عاد فأدرك أنها لم تكن تتصنع وهي تجاهد للتخلص من روميو العجوز ذاك.

وبالتأكيد، لم يكن ذلك التعبير الذي بدا في عينيها مصطنعاً وذلك عندما أدركت من هو القادم لنجدتها.

الفصل الخامس

في اليوم التالي، علم الماركيز أن سباقاً للخيل سيقام على بعد أميال قليلة.

أدرك على الفور، أن هذا سيكون شيئاً خطراً، وأن بعض أصدقائه سيكون حاضراً دون شك.

على كل حال، سيكون هناك صيادون، وحراس صيد، وسائسون سيعرفونه إذا هم رأوه.

ولكنه، لحسن الحظ، ما لبث أن علم بأن الجميع سيذهبون إلى السباق بعربات السيد بيرسي، وسيسوقها سائسوه.

تنهد بارتياح، ثم انتظر إلى أن غادر الجميع المكان، فنزل إلى الاصطبل.

وكان قد سبق وعقد أواصر المودة بينه وبين كبير سائسي السيد بيرسي والذي كان مديراً أكثر منه سائساً.

وبدهاء رجل الأعمال الذي يعرف كيف يستحوذ على الأفضل، تعاقد السيد بيرسي مع رجل من الدرجة الأولى وذلك لشراء جياده والإشراف عليها.

وكانت فكرة الماركيز عن وينرايت هذا أنه رجل يتمنى لو يتمكن هو من استخدامه.

رغم أنه هو نفسه كان على دراية بالغة بشؤون الخيل بحيث لم يكن يحتاج إلى نصائح الآخرين.

كان يأمل في ألاّ يكون وينرايت قد ذهب، هو الآخر، إلى السباق. ولكنه ما أن دخل الإصطبل حتى وجد أن أمله لم يخب.

كان وينرايت جالساً في غرفة معدات الخيل يقرأ الاعلانات في أحدى الصحف الرياضية وعندما دخل الماركيز، رفع بصره، ثم ابتسم قائلاً: «إنني أرى هنا أن الإيرل أوف ميرسبروك يعلن عن رغبته في بيع بعض جياد الصيد عنده، أتظنها تستحق أن يذهب المرء ليراها؟»

فتذكر الماركيز أن الإيرل هذا هو رجل عجوز وأن ابنه يسكن في منطقة مختلفة، فأجاب: «إنني واثق من أنها تستحق أن تذهب لرؤيتها في المزاد العلني. إن ميرسبورك، عندما كان شاباً كان صياداً ملحوظاً قوي المراس.»

فابتسم وينرايت وقال: «سأتبع نصيحتك وإذا كنت ما تزال هنا، فقد نذهب معاً.»

وكان الماركيز يرى أن ذلك غير محتمل، ولكنه أجاب: «لا بد أنك عرفت بأنني جئت أطلب منك المساعدة.»

ضحك وينرايت: «إن الخيار محدود نوعاً ما. ولكنني واثق من أن بإمكاننا أن نجد جواداً يعجبك لامتطائه في نزهتك.»

أجاب الماركيز: «وهذا ما أريده. إنني أشعر بالسعادة في قيادة العربات، ولكن الأمر ليس هو نفسه عندما تمتطي حصاناً نشيطاً مليئاً بالحيوية.»

قال وينرايت: «وهذا هو رأيي أنا أيضاً. فلنذهب إلى الإصطبل.»

بقي الماركيز صامتاً، إلى أن وصل إلى الحصان الذي يريده.

كان اسمه النصر وكان فحلاً رائعاً.

كان أعلى من المعدل، كما كان بالغ الحيوية ومن الصعب امتطاءه.

نظر الماركيز إلى وينرايت وقال: «أظنك كنت تعلم منذ البداية أن هذا هو الذي أريده.»

أجاب هذا: «إنه كلف السيد مبلغاً ضخماً، وعليّ أن أوصيك به خيراً فلا تسبب له أي ضرر، وإلا قطع السيد رأسي.»

فقال الماركيز يطمئنه: «لن أفعل ذلك، فلا تخف.»

«حسناً جداً، إنني أثق بك، يا ليون، رغم أن الألوف يخالفونني في ذلك.»

فضحك الماركيز بشيء من السخرية. ذلك أنه لم يكن يظن قط أن سمعته كفارس ستكون يوماً، موضعاً للشك.

ولكنه، على كل حال، لم يكن يريد أن يجادله في الأمر بعدما حصل على الحصان الذي يريده.

وأسرج السائس الحصان، فامتطاه الماركيز، ثم انطلق به وعينا وينرايت تتابعانه.

كان شعوره بالبهجة لا يوصف وهو يرى نفسه حراً وحيداً ممتطياً جواداً رائعاً.

وكان النصر يحاول بكل الطرق أن يرميه عن ظهره. وكان هذا بالضبط ما يريده الماركيز حالياً.

فقد كان يستمتع بالمعركة المعروفة بين الإنسان والحيوان إلى أن أذعن النصر أخيراً إلى أن راكبه هو الفائز.

وعند ذلك، أخذ يعدو بالسرعة التي كان يريدها الماركيز.

جال في الريف، متجنباً الأمكنة والقرى التي يمكن أن يعرفه فيها أحد.

وأخيراً، بعد مضي وقت طويل، دخل إلى خان صغير ليتناول شيئاً يأكله.

وضع النصر في الإصطبل، ثم جلس إلى مائدة في حديقة صغيرة خلف الخان.

أحضر له صاحب الخان، والذي أعجبه مظهره، وجبة فاخرة من اللحوم الباردة والمخللات والجبن، وعصير الفاكهة.

وبعد ذلك عاد يمتطي الحصان ليعود مكرهاً إلى المنزل. حتى النصر كان متعباً الآن، وهكذا سار به الماركيز ببطء.

وعندما اقترب من ذلك المنزل الواسع القبيح الطراز، تحوّل فدخل في الغابة.

وبددت الأشجار من نفسه غضب الليلة الماضية. وهكذا، أخذ يستمتع بمرأى أشعة الشمس تتسلل من بين الأغصان، والممرات المعشوشبة، وتغريد الطيور.

لم يكن الماركيز يفكر الآن في فلور وإنما في القصص الشيقة التي سيحدث بها تشارلس.

حدث نفسه بأنه ربما يكتب، ذات يوم، كتاباً عن مغامراته.

ولن يصدق أحد أن كل هذا قد حدث فعلاً. ولكنه تصور أن مغامراته هذه ستجعل القراء يضحكون على الأقل.

وكان يقترب من المنزل، إنما لم يخرج من الغابة بعد، عندما رأى أمامه شيئاً أبيض. ولم يستغرب رؤية ليلا جالسة عند جذع شجرة وكان يبدو عليها الاستغراق في التفكير.

وعندما أمكنه رؤيتها بوضوح، كانت رافعة الرأس تنظر إلى شيء فوق رأسها. وكانت يداها متشابكتين في حجرها.

أعجبه صفاء مظهرها هذا.

عند ذلك، سمعت وقع حوافر الحصان، فأدارت رأسها لترى من يكون القادم.

وعندما وقعت نظراتها عليه، أطلقت صرخة صغيرة تعبر عن سرورها.

ووقف هو بجانبها، فهتفت تقول: «ظننتك ذهبت إلى... السباق.»

أجابها: «وكذلك أنا ظننتك ذهبت إلى هناك.»

أشاحت عنه بشيء من الخجل.

وفطن هو إلى أن هناك سبباً خاصاً جعلها تتخلف عن الذهاب.

نزل عن الحصان، ووضع لجامه على رقبته، ثم تركه حراً. وكان بهذا يقوم بمجازفة.

على كل حال، عندما كان رأى النصر لأول مرة، أخبره وينرايت بتاريخ الحصان هذا. وهو أن مالكه الأول الذي

كان قام بتربيته، قد عوده منذ صغره أن يستجيب إلى الصفير.

قال وينرايت: «لقد جربت ذلك بنفسي فوجدته صحيحاً، قد يكون النصر صعباً في أشياء كثيرة، ولكنه يستجيب للنداء كالكلب المطيع.»

ولما لم يكن هناك شيء يمكن للماركيز أن يربطه به، فقد جازف بتركه طليقاً.

فالحصان، في أسوأ الأحوال، سيعود إلى الاصطبل حيث يجد الطعام، وذلك كعادة أكثر الجياد.

جلس عند جذع الشجرة وهو يخلع قبعته ويضعها على الأرض بجانبه.

قالت: «يا له من حصان رائع هذا الذي تمتطيه.»

أجاب: «لقد رغبت في امتطائه منذ شاهدته لأول مرة. وبما أن كل شخص ما عداك، ذهب إلى السباق، فقد استغللت الفرصة.»

قالت: «إنني واثقة من أنك استمتعت بركوبه. كنت أريد أن أراك على ظهر الحصان. لا بد أن مهارتك في الركوب، تعادل مهارتك في القيادة.»

فقال: «إنني أحب هذا النوع من الاطراء. ومن طريقة كلامك، أظنك تمتطين الخيل أنت أيضاً.»

قالت: «عندما تسنح لي الفرصة. عندما كان ابن العم لورنس حياً، كان رقيقاً جداً فكان يسمح لي ولبيتر بأن نمتطي أي حصان نختاره من الإصطبل.»

«أظن ذلك لم يعد مسموحاً لك منذ انتقلت للسكن مع سيادتها.»

فقالت بصوت خافت: «هذا صحيح. فهي لا تسمح بأن يكون لدي وقت للركوب، وذلك يجعلني... مشغولة دوماً.»

فسألها: «هل هذا هو السبب في عدم استطاعتك الذهاب إلى السباق اليوم؟»

فساد صمت قصير حوّلت ليلا أثناءه نظراتها عنه بارتباك. وعندما لم تجب، قال بعد لحظة: «إنني بانتظار الجواب.»

فقالت: «لقد كنت الليلة الماضية... رائعاً بإنقاذك لي... ما جعلني أرجو أن تسنح لي فرصة أراك فيها لكي... أشكرك.»

فأجاب الماركيز: «وكذلك أنا كنت أرجو سناح فرصة كي أخبرك فيها بأنك تصرفت بحماقة بالغة. لا بد أنك تعلمين أنه ما كان لك أن تنزلي إلى الحديقة مع رجل كهذا.»

«لقد أدركت لاحقاً أنني كنت غبية للغاية. ولكنه قال لي فقط، دعينا نذهب إلى الحديقة للتفرج على النافورة. لم أتصور قط أنه سيتصرف بهذا الشكل.»

فقال: «إنك صغيرة جداً، ولكنك كبيرة إلى حد يكفي لكي تدركي بأن عليك ألاّ تقبلي أبداً دعوة رجل لتذهبي معه وحدك إلى الحديقة وإلى قاعة الموسيقى أو معرض الرسوم أو أيّ مكان آخر، إلا إذا كنت تريدين من الرجل الذي يدعوك لهذا، أن يتصرف معك بهذا الشكل.»

فاحمرت وجنتا ليلا وقالت: «إني... إني آسفة لكوني كنت بهذه الحماقة. فقط لو أن أمي... كانت حية...

لأخبرتني بالأشياء التي علي أن أتجنبها أو... تلك التي أقوم بها.»

فقال: «إنني واثق من أن أمك، لو كانت حية، لما أرادتك أن تجلسي حيث تجلسين حالياً، مع السيد بيرسي كراو.»

«لقد فكرت في ذلك... أثناء العشاء. وعندما دعاني ذلك الرجل كبير السن إلى الخروج معه إلى الحديقة... كنت في الواقع... هاربة من شخص آخر.»

ونطقت بهذه الكلمات بصوت مرتجف، أدرك معه الماركيز أنها كانت تشعر بالحرج. فسألها: «شخص آخر؟ وما هو اسمه؟»

أجابت: «كنت جالسة إلى جانبه... على المائدة، واسمه السيد دنتون باركر.»

ولم يكن الماركيز قد سمع بهذا الاسم من قبل.

قال: «أخبريني عنه. لماذا يضايقك؟»

فقالت: «إنه يكثر من مديحي، وهذا يجعلني أشعر بالضيق لأنه... يتصرف معي بالفة... غير عادية.»

وفكر الماركيز في أن ليلا تخجل من المديح الذي يسرّ غيرها من النساء، وذلك لصغر سنها. فسألها: «ما الذي تعرفينه عن ذلك الرجل؟»

فقالت: «إنه... يخيفني. كان ينتظرني عندما عدت إلى... المنزل، وأصر على أن... أخرج معه. لقد أردت الذهاب إلى غرفتي، ولكن ذلك كان صعباً دون أن أبدو... سيئة الأدب ثم...» وسكتت.

فسألها: «ثم ماذا؟»

«لقد شكاني إلى ابنة العم أفريل... قائلاً، إنني أسأت معه الأدب، وعندما حان وقت ذهابي إلى الفراش، جاءت ابنة العم أفريل إلى غرفتي لتقول لي إنني كنت سفيهة، وألقت علي محاضرة في أن علي أن أتساهل ولا أكون صعبة.»

فسألها: «ولماذا فعلت ذلك؟»

أجابت: «إن السيد دنتون باركر غني جداً. لقد كون ثروة كبيرة أثناء الحرب بتموين الجيش بالأحذية والأسلحة.»

فانزعج الماركيز.

لقد كان يعلم جيداً عن الثروات التي كونها رجال مكثوا في بيوتهم أثناء الحرب.

لقد كانوا آمنين في الوقت الذي كان أمثالهما، هو وتشارلس، يحاربون ويموتون.

قال لها: «إستمري، ما الذي قالته لك اللايدي غير ذلك؟»

أجابت: «لقد قالت... إنني سأكون بالغة الحماقة... إذا أنا لم أقبل ما عرضه علي السيد دنتون باركر... وأن ليس علي أن أتوقع منها أن تبقيني في بيتها إلى إجل طويل.»

فقال الماركيز ببطء: «ألم تفكري في قبوله زوجاً حيث انه غني جداً؟»

فأجابت: «إن فيه شيئاً يبعث في نفسي الاشمئزاز... أنا لا أريد... نقوده.»

ابتسم الماركيز، قائلاً: «كوني حذرة إذن، وتجنبيه أثناء وجودك هنا.»

فقالت: «وهذا ما أحاول القيام به. وقد أمكنني ذلك اليوم بإخبار ابنة العم أفريل بأنني لم أنته بعد من الثوب الذي سترتديه في الحفلة هذا المساء.»

ولم تنتظر ما سيقوله، بل أضافت تقول: «ستكون هناك فرقة موسيقية ثانية هذه الليلة وأنا... أعلم أنه لن يكون بإمكاني تجنب السيد دنتون باركر.»

سألها: «أليس في الحفلة شخص مهذب؟ فيتحدث إليك ويساعدك على الابتعاد عن أمثال السيد بيرسي؟»

فقالت: «يبدو أنهم جميعاً على هذه الشاكلة. ولكن ليسوا بنفس ما عليه السيد دنتون باركر من السوء.»

قال: «ليس هناك سوى حل واحد، وهو أن تقولي ان لديك صداعاً، ثم تذهبي إلى فراشك.»

فابتسمت قائلة: «هذا طبعاً ما سأقوم به. وسأخبر ابنة العم أفريل قبل العشاء بأنني متوعكة صحياً.»

ونظرت إلى الماركيز قائلة: «كيف كنت بهذا الغباء بحيث لم أفكر في مثل هذا بنفسي؟»

فقال بصوت جاد: «ما عليك أن تعرفيه، هو أنك كنت تعيشين مع والديك في الريف بكل هدوء، فلم تعرفي كثيراً من الناس. كما أنك أصبحت فتاة جميلة جداً، وهذا وحده يسبب لك الكثير من المتاعب.»

ورأى ليلا تنظر إليه بدهشة، ثم سألته بلهجة غير مصدقة: «أتعني حقاً أنني جميلة؟»

فقال مؤكداً: «بل قلت إنك جميلة جداً، وكنت أعني فعلاً انك جميلة جداً. لكن علي بأن أنذرك بأن عليك أن تكوني على حذر تام لأن الرجال، كل أنواع الرجال بما فيهم أمثال

باركر والرجل الذي ألقيت به في مياه النافورة، كلهم سيرون جمالك لا يقاوم.»

فقالت: «إنهما فظيعان. وربما كان من الأفضل لو كنت بشعة. وربما علي أن أرتدي قناعاً.»

فضحك الماركيز: «إن هذا سيثير الكثير من التعليقات، ويحمل كل شخص على الاصرار على رفع القناع ليرى ما تحته.»

فقالت: «ها إنك الآن... تخيفني. وأرجوك... لا تدعنا نستمر في الحديث عني. إنك حللت مشكلتي... وسأذهب إلى غرفتي بحجة الصداع وذلك بعد العشاء مباشرة. ثم أقرأ في كتاب قبل أن أنام.»

فقال الماركيز: «هذا شيء أظن عليك أن تقومي به أغلب أوقاتك. هذا إذا تابعت العيش مع ابنة عمتك ذات الملابس المبهرجة، وغير حسنة التربية، تلك.»

فحملقت ليلا فيه، قائلة: «أتعني أن ابنة العم أفريل... لا تعجبك؟»

«إذا شئت الحقيقة، فأنا أراها مبهرجة الثياب كما أنها سوقية بذيئة.»

فقالت في صوت خافت: «وهذا هو رأيي أنا أيضاً... ولكنني خفت أن تظنني... غير مهذبة.»

فقال: «إن التمييز بين الأفراد لا يعني أنك غير مهذبة. وهذا هو السبب، يا ليلا، في أن عليك ألا تحكمي على الاشخاص الذين تتعرفين عليهم في هذا المنزل، من خلال من ستتعرفين عليهم في لندن.»

وسكت برهة، ثم عاد يقول: «وأتصور، مما سمعته من

الخادمات الخاصات اللاتي قابلتهن هنا، أن سيداتهن جميعاً من نفس نوع اللايدي هورنكليف، تقريباً.»

فقالت بصوت خافت: «إنهن جميعاً يفرطن في الزينة. وقد فكرت في الليلة الماضية في أن أمي، لو كانت موجودة، لما أعجبتها طريقة... حديثهن و... تصرفاتهن.» وساد صمت قالت بعده: «ألم تغير رأيك... بالنسبة للكوخ الذي ستؤجرني اياه.»

فأجاب: «كلا بالطبع. وحالما تعود ابنة عمك إلى لندن، وهذا أظنه سيكون بعد أسبوع أو نحوه، سأرى إن كان جاهزاً لك.»

فقالت: «أتمنى لو كانت هناك كلمة أخرى تعبر عن امتناني أكثر من كلمة شكراً. إنني أشتغل في كل وقت فراغ يحصل لي... حتى إذا وصلنا، أنا وبيتر، إلى الكوخ، يكون لدي... ما أبيعه.»

فقال: «إذا أنت أعطيتني ما أنهيت صنعه، وذلك قبل أن تصل إلى لندن، فسأبيعه لأجلك، وبهذا سيكون لديك شيء من النقود، ولو لشراء الطعام.»

فتنهدت ليلا، ثم قالت: «ها إنك تفصح عن كرم أخلاقك، مرة أخرى. وحالما أتمكن من تجميع بعض النقود... سأدفع لك... أجرة الكوخ.»

فقال بحزم: «لا وجوب للاسراع في ذلك. ثم أنني أعجب للسبب الذي جعلك لا تملكين نقوداً مطلقاً.»

فقالت: «كان لدي... خمسة جنيهات عندما أخبرتني ابنة العم أفريل أن أحضر إلى منزلها وأخيط لها ثيابها، ولكنني أعطيت هذا المبلغ كله إلى الآنسة دين المربية التي تعتني

ببيتر، فهي لا تملك إلا تقاعداً ضئيلاً جداً تعيش به، ولا تستطيع الانفاق على بيتر.»

ونظرت إلى الماركيز بشيء من الخوف وكأنها تخاف أن يظنها مسرفة. ثم قالت: «إن بيتر كبير الحجم بالنسبة إلى عمره... وهو دوماً... يشعر بالجوع.»

وتذكر الماركيز مبلغ كراهية اللايدي هورنكليف لمن يأكلون كميات تعتبرها زائدة. وتفهم شعور ليلا في عدم ارتياحها لأن يعيش بيتر في أحوال كهذه.

قال بحزم: «إنني واثق جداً من أن بإمكاني أن أبيع لك هذه المناديل بأسعار جيدة، وكذلك أي شيء آخر تصنعينه. وعندما نعود إلى لندن سأحضر إليك طلبات بصنع قمصان نوم وأشياء أخرى مما تحتاجها النساء.

قالت ليلا: «سأكدح وأكدح. ولكن الصعوبة حالياً هي في الحصول على القماش.»

فقال: «أرجو أن تسمحي لي إذن بأن أكون الممول لك.»

وعندما قال هذا، تذكر كم من المرات قال هذه الكلمات وحدث نفسه بأن هذا شيء كان عليه أن يتوقعه حتى من ليلا.

عند ذلك، انتبه إلى أنها تنظر إليه بعينين ذاهلتين، ثم هتفت تقول: «إنني طبعاً لا أعني... هذا، كيف لك أن تفكر، بعد كل ما بدر منك من كرم وشهامة نحوي... أن من الممكن أن أقبل منك نقوداً أنت تحصلها من عرق... جبينك؟ أشكرك... أشكرك لتفكيرك هذا بي... ولكنه شيء لن أقبله أبداً... أبداً.»

كانت تتحدث بعزم جعل الماركيز يسألها:

«ولماذا تهتمين للأمر بهذا الشكل؟»

فقالت: «لأنك تحصل رزقك بعرق جبينك ولا أظن ابنة العم إفريل ستكون كريمة بالنسبة إلى... راتبك. ارجوك أن تسامحني لتحميلك عبء مشاكلي بينما لا بد لديك ما يكفيك أنت أيضاً.»

فسألها: «وما الذي يدفعك إلى هذا الظن؟»

رآها تختار كلماتها لتقول بعد ذلك: «لا أريد أن أبدو وكأنني أتطفل على شؤونك الخاصة... ولكنني لست من الغباء بحيث لا أدرك أنك سيد مثقف... وهذا يعني أنك لا بد أن تكون في منتهى الفقر لكي تقبل بوظيفة... حوذي.»

فقال: «إنني أستمتع، في الواقع، بهذا العمل. فأنا أحب الجياد وكذلك قيادة العربات. فإذا كان عليّ أن أشتغل، فليكن ذلك في الهواء الطلق على الأقل.»

«إن ذكاءك يخولك، في نفس الوقت، للقيام بأعمال أخرى. إنني أرجو لك من كل قلبي أن تجد عملاً تكون فيه... مع رجال وأصدقاء مثلك.»

فقال الماركيز: «أظن أن عليك أن ترجو الأفضل لنفسك. فنحن الاثنان نعلم أن أمك ما كانت لترضى عن اتصالك حالياً، بأولئك الأشخاص وحيث أنني رأيتهم مع ابنة عمك أفريل يجعلني أعتقد أنك كلما أسرعت بالانتقال إلى الكوخ، كان ذلك أفضل.»

وكان أثناء حديثه ذاك، يفكر في الواقع، فيما لو طلب من أحد أقربائه رعاية ليلا وأخيها.

ولكنه كان يدرك، في نفس الوقت، أن بيتر هو مسؤولية كبرى.

فقد كان واثقاً من أن جدته أو أياً من قريباته المسنات، سيرحبن بليلا مرافقة لهن.

وحدث نفسه بحزم: سأفكر في شيء ما، وفي نفس الوقت، كلما أسرعت ليلا في الابتعاد عن حفلة السيد بيرسي، قل احتمال تعرضها لمشكلة أخرى كالتي سبق وواجهتها.»

قال لها: «فلنبحث قضايانا واحدة بعد أخرى. يجب أن تشجعي ابنة عمك على أن تترك هذا المكان في أسرع وقت ممكن، وأن ترى المنزل الذي تفكر بشرائه في هيرفورد شاير.»

وسكت لحظة، ثم تابع يقول: «ربما سنصل إلى هناك بظرف يومين، وبعد ذلك، عليها أن تعود إلى لندن.»

أجابت: «تلك كانت الخطة الأساسية ولكن ابنة العم أفريل مسرورة في هذا المكان حيث تجد كثيرين من الناس يمتدحونها ويطرون جمالها.»

قال الماركيز وهو يتنهد: «إذن، فما عليك إلا أن تدعي المعاناة من صداع دائم كل مساء وحيث أنك ستكونين في غرفتك جالسة لا تصنعين شيئاً، فعليك أن تسمحي لي بأن أشتري لك أقمشة الموسلين، والكتان أو أي نوع تطلبينه من القماش.»

ففكرت ليلا لحظة، ثم سألته: «هل أنت واثق... واثق تماماً من أن بإمكانك شراء ذلك؟ ألن تحرم نفسك، بهذا... من شيء ما؟»

فقال: «أؤكد لك بأن بإمكاني شراء ذلك. وفي الواقع، كما سبق وأخبرت بقية المستخدمين، فقد كنت ربحت جائزة في

السباق قبل أن نترك لندن ولهذا استطعت شراء طعام لهم كانوا يستحقونه وذلك لتفاهة الطعام التي كانت سيادتها تمدهم به.»

فهتفت: «هل فعلت ذلك حقاً، آه كم أنت كريم. لا بد أنهم... كانوا شاكرين لك جداً.»

فقال: «كانوا، مثلك شاكرين جداً، ولكن اهتمامنا حالياً هو بك أنت. وأنا واثق من أن بإمكاني أن أجد نوع القماش الذي تريدين. وسأقوم بذلك في أول مدينة نمرّ بها في طريقنا إلى هيرفورد.»

فنظرت إليه وفي عينيها تالق غريب.

نهض الماركيز واقفاً، وهو يقول: «يجب أن أعيد الحصان النصر إلى الاصطبل، وإلا فانا متأكد تماماً من أن كبير السائسين سيظنني هربت به.»

فهتفت ليلا: «يجب أن لا تدعه يظن هذا... وأرجوك ألاّ تقوم بشيء يغضب ابنة العم أفريل ما قد يجعلها... تطردك من العمل.»

ولكن الماركيز كان يعلم أن من غير المحتمل أن تفعل الليدي هذا، ولكنه قال: «وهل يقلقك أن أطرد من العمل وأعود إلى لندن محقراً؟»

فقالت: «آه، أرجوك، فليس في إمكاني احتمال ذلك... وعندما أنقذتني الليلة الماضية أدركت كم كنت محظوظة للغاية...»

فقال بشيء من التهكم: «إنني مسرور إذ أمكنني أن أؤدي لك خدمة.»

فقالت: «إنك قوي للغاية. فأنا لا أعرف رجلاً آخر كان

بإمكانه أن يحمله بهذه السهولة، ثم يرميه في النافورة.»

قال: «أرجو أن يكف عن إزعاجك في المستقبل.»

قالت: «أظنه سيفعل ذلك، فقد حاول أن يتجنبني عند الافطار، وأظنه قد شعر بتفاهته بعد أن عاملته أنت بتلك الطريقة.»

فقال: «من المؤسف أن ليس بإمكانك أن تحذري باركر لأنه سينال نفس المعاملة.»

ورأى ليلا ترتجف أثناء هذا الحديث.

وكأنها لم تعد تحتمل الحديث عنه، أخذت تسير بين الأشجار، وشاهدا النصر من بعيد يرعى الحشائش.

فقال الماركيز: «إنتظري لحظة، إنني أريد إجراء تجربة.»

فوقفت ليلا، واستدارت تنظر إليه.

أخذ يصفر بفمه، ومرت لحظة بدا فيها وكأن النصر لم يول ذلك أي انتباه.

ثم، إذا بالحصان يرفع رأسه.

وصفر الماركيز ثانياً. وإذا بالحصان يركض.

وشبكت ليلا يديها، وهي تسأله: «كيف علمت أنه سيأتي إليك إذا أنت صفرت له؟»

فأجابها: «لقد تدرب على ذلك منذ كان مهراً صغيراً. ولكن القلق تملكني في الواقع، خوفاً من ألا يأتي، ويكون علي أن أعود إلى المنزل ماشياً.»

قالت: «لو أنك كنت صاحب النصر، ربما كان بإمكانك أن تقدم معه عرضاً في السيرك، فيصفق لك المشاهدون عندما يرون تجاوبه مع صفيرك.»

فسألها: «أتظنين ذلك قد يحسن وضعي في الحياة؟ لا أدري إذا كان مقدم العروض في السيرك يكسب أكثر من الحوذي.»

كان يتحدث بسخرية، ولكن ليلا أخذت تفكر لحظة بجد، ثم قالت بينما كان الماركيز يسوّي من لجام الحصان: «أظنك ستنجح... في كل أمر تتولاه. والمسألة لا تعدو عثورك على العمل الذي يناسبك. ومهما كان وضعك، ستؤديه دون شك، بكل ذكاء، وتبقى في نفس الوقت، شخصية مميزة.»

فقال: «شكراً، فأنا لم أتلق من قبل مثل هذا الاستحسان المشجع لمواهبي.»

فقالت: «أنا... أنا بإمكاني أن أقول أكثر من ذلك كثيراً... ولكن ربما يجعلك ذلك... تحمرّ خجلاً.»

فقال باسماً: «أظنني اجتزت طور الاحمرار خجلاً. ولكنني أتطلع إلى سماع المزيد من رأيك بي في المرة القادمة.»

فسكتت ليلا لحظة، ثم قالت بصوت طفولي: «حاول أن تكلمني... مرة أخرى إذا سنحت لنا فرصة... الانفراد معاً.»

فأجاب: «إنك تعلمين أنني سأفعل ذلك ولكن انتبهي إلى نفسك. ولا تكوني وحدك مع أي شخص كان، ولو كان أعمى ويسير على عكازين.»

فضحكت ليلا وكان هذا هو ما قصد إليه.

وقفز ممتطياً ظهر الحصان، ثم رفع لها قبعته محيياً، ليتوارى، بعد ذلك، في الغابة.

وأخذت هي تنظر إليه وهو يبتعد. وعندما اختفى من أمام عينيها، تنهدت، ثم سارت عائدة إلى المنزل من الطريق الذي يمر في الحديقة.

كانت تحدث نفسها، قائلة: إنه رائع... رائع تماماً. كم أنا محظوظة إذ تعرفت إلى رجل بمثل هذه الرقة والشهامة والتفهم.

وأغمضت عينيها وهي تتابع قائلة: إنني واثقة، يا أمي، من أنني مخطئة إذ أقبل منه كوخاً دون أن أدفع أجرته، وربما أسوأ من ذلك، السماح له بشراء قماش لي. ولكن ليس أمامي طريقة أخرى لتحصيل المال.

وسكتت لحظة، ثم عادت تقول: لم أشأ أن أخبره بأن ابنة العم أفريل قد باعت كل الأشياء التي كانت في بيتنا، تقريباً.

وتابعت سيرها إلى أن بدا لها المنزل، فوقفت تفكر في مقدار كراهيتها لأولئك الذين سيحضرون الحفلة.

فالرجال كانوا يحدثون الكثير من الضوضاء، كما كانوا يتصرفون نحوها بوقاحة.

وكانت النساء اللاتي يكبرنها كثيراً في السن، يتجاهلنها، ولكنهن يتهافتن على ابنة العم أفريل.

ولكنها كانت تعلم أن هذا بسبب ثرائها.

أما ما كن يقلنه لها، فلم يكن ينبىء عن إعجاب بل عن حسد.

وأخذت ليلا تفكر في الليلة السابقة، وهذا الصباح، بأن الضيوف من الرجال لم يكونوا سادة راقين مثل أبيها والسير لورنس،

في الواقع، كان صحيحاً ما أخبرت به الماركيز من أنه سيد راقٍ.

وكانت تقترب من المنزل وهي تفكر في أنه بعد وقت قصير، سيتدفق الحشد الصاخب قادماً من السباق.

الفصل السادس

ما أن وصلت ليلا إلى غرفتها، حتى سمعت صوت العربات تصل من السباق.

وكانت غرفتها تقع في نهاية الطابق الأول، وكانت تدرك أنه كان تنازلاً منهم ان يضعوها بين ضيوف السيد بيرسي المفضلين. وخيل إليها أن هذه الغرفة هي أصلاً معدة لرجل عازب، فقد كانت الجدران مغطاة بورق عليها رسوم معدات رياضية.

وكان من الممكن أن تكون تلك الرسوم جميلة، لولا السجادة الجديدة الفاقعة الألوان.

وعلى كل حال، فقد كانت مسرورة بوجود نافذة عريضة تشرف على واجهة المنزل.

فقد كانت تساعدها على الخياطة في نور الشمس، وعندما اخذت تنظر منها، رأت أولى العربات تتوقف امام الباب الأمامي، وكان ركابها بالغي الصخب.

وتبعتها عربة كان عدد الرجال فيها متفوقاً على عدد النساء، وكانوا اكثر صخباً.

وأدركت من تصرفاتهم أنهم قد امضوا وقتاً طيباً.

وشعرت بالسرور لعدم ذهابها معهم.

فقد كان لقاؤها مع جون ليون في الغابة، وذلك الحديث الذي دار بينهما، كان ذلك رائعاً، ولا يمكن أن تجد رجلاً آخر يماثله رقة وتفهماً.

فقد أخذ ينصحها بما يجب عليها عمله، كما أنه كان قد سبق وانقذها، وتملكها اليأس وهي تتصور ما سيكون عليه الأمر لو أنه لم يعد موجوداً.

وحدثت نفسها بأنها اقترفت خطأ بالغاً عندما اقترحت عليه أن يفتش عن عمل آخر.

وتملكها الرجاء بأن يقنع بالبقاء في العمل مع ابنة عمها، وإن كانت تعلم، على كل حال، مبلغ كراهية الخدم في لندن وفي الإرياف، للطريقة التي تعاملهم بها سيدتهم.

لقد قالت مديرة المنزل التي خدمت السيد لورنس سنوات طويلة: «لو لم اكن كبيرة السن، لحزمت امتعتي وغادرت البيت، صدقيني يا آنسة ليلا.»

فردت عليها ليلا ضارعة: «إياك ان تفعلي هذا، فالبيت من دونك لن يعود كما كان.»

ومثل مديرة المنزل كان رئيس الخدم والخادمات اللاتي كن يجعلن كل شيء يبدو نظيفاً لامعاً بشكل رائع.

ولكنهم ما لبثوا ان علموا بأن اللايدي هورنكليف لم تجد المكان حسناً بما فيه الكفاية بالنسبة إليها. إن ليلا مازالت تتذكر الصدمة التي هزت القرية بأجمعها، كما لم تستطع أن تحتمل التفكير في الهلع واليأس اللذين شعرت بهما عندما علمت ببيع بيتها، لتبقى هي وبيتر دون مال ولا مأوى.

كانت، في البداية، شاكرة جداً عندما طلبت منها إبنة العم أتريل أن تبقى.

ولكنها عندما عرفت أنه لن يكون بإمكانها أن تعيش مع

أخيها، وأن اللايدي سترسله إلى ملجأ الأيتام، شعرت نحوها بالكراهية.

وكانت الكراهية شيئاً غريباً على طباع ليلا، فقد كان الحب يملأ بيتها في حياة والدها، ومع أن أمها حزنت على أبيها عند موته، إلى درجة اليأس، فقد كان مشغوفة حباً بولديها.

وتعلقا هما بها لأنها كات تمثل في حياتهما الإستقرار والجمال.

ولكن ليلا ترى أنهما، هي وبيتر، قد أصبحا وحدهما في الحياة.

وكانت ستشعر بالذعر لدى التفكير في المستقبل، لولا جون ليون.

والليلة الماضية، بقيت مستيقظة وقتاً طويلاً، فكانت تضع خطة لتحصيل النقود، وذلك لكي تتمكن من العناية ببيتر، أولاً، وثانياً لكي تتمكن من دفع أجرة الكوخ لجون ليون.

كما أن الكوخ بحاجة إلى أثاث، ولكنها لم تكن تملك سوى القليل من الأمتعة بقيت لها.

عندما أخبرتها إبنة العم أفريل بانها باعت البيت، أردفت تقول بلهجة متغطرسة: «بما انك قادمة للسكن معي، فانت لست بحاجة إلى إحضار أي شيء معك، ولهذا بعته مفروشاً.»

سألتها ليلا، عند ذاك، متوسلة، ان كانت تسمح لها بأن تستبقي بعض الأشياء النفيسة التي كانت تخص أمها، والتي كانت ألفتها منذ تفتحت عيناها على الحياة.

فقد كانت هناك منضدة جميلة فرنسية الطراز كانت أمها دوماً تكتب عليها رسائلها.

وكذلك منضدة مرصعة كان أبوها يضع عليها لوح الشطرنج.

كانت هناك أيضاً رسوم تحمل لكل منهما ذكرى حيث أن أباها كان حدثها بقصتها.

وأخيراً، سمح لها بأخذ أشياء قليلة جداً من المنزل قبل أن يضع المالك الجديد يده عليه.

ولما كان أحد الجيران يشعر بالأسف لأجل ليلا، فقد حفظها لها في أحد منازله الخارجية.

ولكن لم يكن مسموحاً لها بأخذ سرير أو ستائر ولهذا كان عليها أن تنتظر، لكي تتمكن من شراء هذه الأشياء، إلى أن يبيع جون ليون الأشياء التي ستصنعها.

وفكرت في أن الأمر سيكون صعباً، بل في غاية الصعوبة، ولكن أي شيء هو أفضل من الانفصال عن بيتر والعيش مع إبنة العم أفريل التي كانت تحقد عليها لكل قرش يكلفه اطعامها.

وحدثت نفسها بهدوء: «سوف نتدبر أمرنا.» ثم رفعت ذقنها وكأنها تتحدى الناس.

ووصلت العربة الثالثة، وكان أول من خرج منها هو السيد دنتون باركر.

وحالما وقع بصرها عليه، تراجعت عن النافذة وتوارت خلف الستائر.

كان من غير المحتمل أن يرفع بصره ويراها، ولكن مجرد مرآه جعلها ترتجف. فهي لم تذكر

لجون ليون الأشياء التي كان هذا الرجل قالها لها.

فقد شعرت بالخزي إذ ينطق أي رجل بتلك الكلمات غير اللائقة... خصوصاً وهي لم تعرفه إلا منذ فترة قصيرة.

ليس فقط لما قاله، بل للطريقة التي كان ينظر بها إليها.

فقد كان في عينيه تعبير أدركت أنه سيء إلى حد البغض تقريباً.

وحدثت نفسها بأن عليها أن تتجنبه هذه الليلة، وكم تتمنى لو تقرر إبنة العم أفريل الرحيل.

وكان موعد العشاء يقترب، فغسلت يديها وارتدت ثوباً بسيطاً من صنعها، مستعملة لذلك قماشاً من أحد أثواب أمها القديمة الطراز.

وكانت تعلم أنه لا يقاس بالأثواب التي ترتديها النسوة الأخريات. ولكنه كان، رغم غفلتها عن ذلك، يعكس جمالها تماماً.

كانت على كل حال مهتمة بثوب إبنة العم الذي كانت أنهت اصلاحه، اكثر من أي شيء ترتديه هي نفسها. ذلك أنه كان عملاً معقداً. فقد كان الثوب من صنع خائطات شارع بوند ستريت في لندن وكان مطرزاً بالخرز بشكل كثيف.

وعلى كل حال، فقد نجحت ليلا في توسيعه، وكانت ترجو أن يعجب عملها هذا إبنة عمها.

وكانت قد صممت على ألاّ تنزل إلى الطابق الأسفل إلا قبل العشاء مباشرة.

وإلا، فإن السيد دنتون باركر سيزعجها فلا يفارقها، كما

حدث في الليلة السابقة. فقد كان يلاحقها بنظرات كانت تضايقها.

وسمعت نقراً على الباب، ففتحته ليلا لترى خادمة إبنة عمها أفريل تقف عنده، قالت الخادمة: «إن سيادتها تريد رؤيتك.»

وكانت تتكلم بتلك اللهجة العدوانية التي لا تتغير مع ليلا، فقد كانت تكره حاجة سيدتها إليها. وكانت تقول لها دوماً بلهجة غير لائقة: «إنني دوماً أقوم بالعمل الذي تقومين به أنت الآن، ولم اكن أشكو ذلك.»

فكانت ليلا ترد عليها: «إنني أعرف انك تستطيعين الخياطة بشكل جميل جداً، ولكن الخياطة هي مهنتي الوحيدة وأنا جداً شاكرة لسيادتها أن سمحت لي بالعمل عندها.»

وكانت غالباً ما تفكر في أن خادمة اللايدي الخاصة، واسمها سميترز هي أحسن حالاً منها.

فقد كانت سميترز تتلقى أجراً طيباً، أما هي فلم تكن تأخذ أي أجر، وكانت تأمل في أن تتلقى شيئاً من المال، ولكن حال وصولها، قالت لها اللايدي هورنكليف: «بما أنك تعيشين عندي، وانك مرافقة ولست خادمة، فلا حاجة بك لأي مكافأة. إن بإمكانك أن تطلبي مني ثمن كل شيء تريدين شراءه.»

وتعلمت عندذاك، ليلا وهي ترى كم من الساعات تمضيها في الخياطة.

وردت عليها بشيء من الحدة: «أريد أن يكون في يدي

شيء من المال لأتمكن من شراء هدايا لأخي بيتر وكذلك... لك طبعاً...»

وأضافت الكلمات الأخيرة بعد تفكير قصير، ولكن اللايدي لم تتأثر بذلك، فردت عليها تقول: «ان الهدايا التي أريدها منك هي الشكر والاخلاص فتلك لا يقدر بالمال.»

وبعد ذلك بعدة أسابيع، كان عليهم أن يقوموا بهذه الرحلة إلى هيرفورد شاير.

وتجرأت ليلا على أن تقول بخجل انها بحاجة إلى معطف خفيف وشال، وهي تقول معتذرة: «إني واثقة من أن بإمكاني شراء معطف رخيص جداً.»

فاجابت اللايدي هورنكليف: «لا اظن ذلك. ولا بد ان لدي معطف لم أعد استعمله، سأمنحه لك.»

وبعد مشاورة طويلة مع خادمتها الخاصة، اهدت إلى ليلا معطفاً رثاً حائل اللون.

وكذلك أحضرت إليها ثوباً كان شراب التوت قد اندلق عليه فأحدث فيه بقعاً، ثم شالاً كان من القدم بحيث فقد عدداً من شراريبه.

ولكن ليلا افلحت، وهي تغير طراز ذلك الثوب، بإخفاء تلك البقع حيث انها كانت أصغر حجماً من إبنة عمها.

أما بالنسبة إلى المعطف، والذي لم يعجبها، فقد كانت تأمل في أن يكون الجو دافئاً فلا تحتاج إليه.

أما الشال، فقد جعلها تشعر وكأنها من اطفال المؤسسات الخيرية.

وها هي ذي الآن سميترز تقول لها بغيظ: «إن سيادتها

تريد أن ترى الثوب الذي اصلحته لها، فإذا لم يعجبها فإن المصائب ستنهال على رأسك.»

فاجابت ليلا: «سآتي معك.»

والتقطت منديل يدها، ثم ألقت على المرآة نظرة أخيرة لترى ان كان شعرها منتظماً، ثم أسرعت تجتاز الممر.

كانت غرفة اللايدي هورنكليف إحدى أفضل غرف المنزل، والتي كانت تحتوي سريراً بأربعة أعمدة وستائر مطرزة.

كانت تحتوي على أثاث ليس جميلاً بشكل خاص وإنما كان ينطق بالثراء. وكذلك كانت السجادة وغطاء السرير.

كانت أفريل هورنكليف، تنتظر بفروغ صبر، وما أن دخلت ليلا، حتى قالت لها متذمرة: «لماذا تأخرت؟ أردتك أن تساعديني في ارتداء الثوب الذي اصلحته.»

فاجابت ليلا: «نعم، طبعاً، يا إبنة عمي، أرجو الآن انك ستجدينه مريحاً.»

فاجابت اللايدي: «إذا لم يكن كذلك، فساتضايق تماماً. لقد كلفني مبلغاً كبيراً.»

وساعدت ليلا وسميترز اللايدي على ارتداء الثوب.

وتنفست ليلا الصعداء حين جاء الثوب مريحاً تماماً لا يستلزم أي تذمر.

ونظرت اللايدي إلى نفسها في المرآة. كان الخرز على الخصر يتألق في أشعة الشمس الغاربة.

وبعد لحظة، اعلنت تقول: «أريد أن اضع عقدي الماسي.»

فهتفت سميترز: «أظن سيادتك قد سبق واخترت العقد الفيروزي لهذه الليلة.»

فقالت اللايدي: «لقد غيرت رأيي، وأريد أيضاً القرطين الماسيين والسوار الماسي وكذلك خاتمي الكبير.»

فقالت سميترز: «إنها جميعاً في الخزنة في الطابق الأسفل حيث كنت سيادتك قد طلبت مني حفظها.»

فأجابت اللايدي بحدة: «إذهبي واحضريها إذن، ما الذي تنتظرينه؟»

فخرجت سميترز من الغرفة، بينما التفتت اللايدي إلى ليلا قائلة: «والآن، بما أننا وحدنا، يا ليلا، فهذه فرصة اتحدث فيها إليك.»

فسألتها ليلا بشيء من التوتر: «عن أي شيء؟»

«ذلك المعجب المتحمس... ومن غيره؟»

جمدت ليلا في مكانها، بينما تابعت اللايدي تقول: «لقد تحدث إلي اثناء السباق، واظنك فتاة محظوظة جداً.»

فلم تتكلم ليلا، وتابعت اللايدي: «لقد اخبرني بأنه، حيث انه مفتون بك، فهو لن يعطيك فقط بيتاً في لندن، مسجلاً إياه باسمك رسمياً، ولكنه سيضع لك مبلغ عشرة آلاف جنيه في البنك.»

وكانت اللايدي هورنكليف تتكلم بلهجة الانتصار، ثم تابعت تقول: «ليس هناك من تطلب أحسن من ذلك، وكل ما يمكنني قوله هو أن الأفضل لك أن تقبلي قبل ان يغير رأيه.»

وجذبت ليلا نفساً عميقاً.

أرادت أن تقول، بهدوء، انها لا ترغب في الزواج منه ولو كان آخر رجل في العالم.

ولكنها ما لبثت أن أدركت أنها بذلك، ستثير غضباً أهوج لدى اللايدي.

والأفضل أن تقول هذا الكلام للرجل نفسه.

وقالت اللايدي تحاول اقناعها: «إنه غني جداً لدرجة أنه يثير الحسد في نفس السيد بيرسي... وصدقيني أن هذا يعني شيئاً كثيراً.»

ولم تدهش لعدم رد ليلا عليها وإنما تابعت تقول: «إن ما تحتاجه المرأة ليس سوى المال والمركز، ومن الصعب جداً أن تجديهما معاً.»

وابتسمت لصورتها في المرآة وهي تقول: «أما أنا فقد كنت محظوظة، وأنا أنوي أن اغزو لندن، قبل أن أتزوج مرة أخرى.»

وضحكت قليلاً ثم تابعت تقول: «إنهم لا ينفكون عن سؤالي عما إذا كنت أقبل وضع خاتم الزواج في إصبعي، ولكنني أريد أولاً أن أرى حسابهم في المصرف قبل أن أعطي جواباً لأي منهم.»

وأخذت تربت على شعرها تسويه وهي تتابع: «والآن، كوني فتاة عاقلة واخبري دنتون باركر هذه الليلة انك ستفعلين ما يريد، واتركي كل أمورك بين يديه.»

وسكتت قليلاً، ثم قالت: «وبالمناسبة، أرى ألا تتفوهي بكلمة عن أخيك المتعب ذاك إلى أن تصبح العشرة آلاف جنيه والمنزل ملك يديك. هذه هي نصيحتي، وستكونين حمقاء إذا أنت لم تأخذيها.»

ولحسن الحظ، لم تجد ليلا فرصة للإجابة. فقد فتح الباب ودخلت سميترز تحمل بين ذراعيها صندوق المجوهرات.

وعندما انتهت اللايدي هورنكليف من جعل نفسها

فقالت اللايدي: «لقد غيرت رأيي، وأريد أيضاً القرطين الماسيين والسوار الماسي وكذلك خاتمي الكبير.»

فقالت سميترز: «إنها جميعاً في الخزنة في الطابق الأسفل حيث كنت سيادتك قد طلبت مني حفظها.»

فأجابت اللايدي بحدة: «إذهبي واحضريها إذن، ما الذي تنتظرينه؟»

فخرجت سميترز من الغرفة، بينما التفتت اللايدي إلى ليلا قائلة: «والآن، بما أننا وحدنا، يا ليلا، فهذه فرصة اتحدث فيها إليك.»

فسألتها ليلا بشيء من التوتر: «عن أي شيء؟»

«ذلك المعجب المتحمس... ومن غيره؟»

جمدت ليلا في مكانها، بينما تابعت اللايدي تقول: «لقد تحدث إلي اثناء السباق، واظنك فتاة محظوظة جداً.»

فلم تتكلم ليلا، وتابعت اللايدي: «لقد اخبرني بانه، حيث انه مفتون بك، فهو لن يعطيك فقط بيتاً في لندن، مسجلاً إياه باسمك رسمياً، ولكنه سيضع لك مبلغ عشرة آلاف جنيه في البنك.»

وكانت اللايدي هورنكليف تتكلم بلهجة الانتصار. ثم تابعت تقول: «ليس هناك من تطلب أحسن من ذلك، وكل ما يمكنني قوله هو أن الأفضل لك أن تقبلي قبل ان يغير رأيه.»

وجذبت ليلا نفساً عميقاً.

أرادت أن تقول، بهدوء، انها لا ترغب في الزواج منه ولو كان آخر رجل في العالم.

ولكنها ما لبثت أن أدركت أنها بذلك، ستثير غضباً أهوج لدى اللايدي.

والأفضل أن تقول هذا الكلام للرجل نفسه.

وقالت اللايدي تحاول اقناعها: «إنه غني جداً لدرجة أنه يثير الحسد في نفس السيد بيرسي... وصدقيني أن هذا يعني شيئاً كثيراً.»

ولم تدهش لعدم رد ليلا عليها وإنما تابعت تقول: «إن ما تحتاجه المرأة ليس سوى المال والمركز، ومن الصعب جداً أن تجديهما معاً.»

وابتسمت لصورتها في المرآة وهي تقول: «أما أنا فقد كنت محظوظة، وأنا أنوي أن اغزو لندن، قبل أن أتزوج مرة أخرى.»

وضحكت قليلاً ثم تابعت تقول: «إنهم لا ينفكون عن سؤالي عما إذا كنت أقبل وضع خاتم الزواج في إصبعي، ولكنني أريد أولاً أن أرى حسابهم في المصرف قبل أن أعطي جواباً لأي منهم.»

وأخذت تربت على شعرها تسويه وهي تتابع: «والآن، كوني فتاة عاقلة واخبري دنتون باركر هذه الليلة انك ستفعلين ما يريد، واتركي كل أمورك بين يديه.»

وسكتت قليلاً، ثم قالت: «وبالمناسبة، أرى ألا تتفوهي بكلمة عن أخيك المتعب ذاك إلى أن تصبح العشرة آلاف جنيه والمنزل ملك يديك. هذه هي نصيحتي، وستكونين حمقاء إذا أنت لم تأخذيها.»

ولحسن الحظ، لم تجد ليلا فرصة للإجابة. فقد فتح الباب ودخلت سميترز تحمل بين ذراعيها صندوق المجوهرات.

وعندما انتهت اللايدي هورنكليف من جعل نفسها

كشجرة العيد، كان الوقت للنزول إلى الطابق الأسفل، قد حان.

وعندما دخلوا غرفة الجلوس حيث يجتمع الضيوف جميعاً قبل العشاء، شاهدت ليلا السيد دنتون باركر ينظر أولاً إلى اللايدي هورنكليف ثم بعد ذلك، إليها.

لقد علم أن اللايدي قد اخبرتها عن عرضه ذاك.

وأدركت من التعبير الذي بدا على وجهه، أنه كان واثقاً من أنه غير مرفوض.

وحدثت نفسها تقول، إني أكرهه... أكرهه...

وما لبثت أن شعرت بالإرتياح عندما أخذ السيد بيرسي يقدمها إلى بعض الضيوف الذين كانوا وصلوا لتناول العشاء.

وحيث أن عددهم كان كبيراً، فقد انتشروا على مائدة العشاء بين مدعوي الحفلة المنزلية.

ووجدت ليلا نفسها جالسة بين إثنين منهم، وكان اهتمامهما، هما الاثنين، ينحصر في الخيل، وهكذا كان الحديث يدور بينهم بسهولة ولا يتدخل في الأمور الشخصية.

وجدتهما مغايرين في كل شيء لأصدقاء السيد بيرسي. فكانت تراهما وهما ينظران بدهشة إلى المدعوين للحفلة المنزلية.

وفي نهاية العشاء، صممت ليلا على أن تنسل صاعدة إلى غرفتها حالما تبدأ السيدات بترك المائدة، آملة ألاً تلحظ إبنة عمها اللايدي، خروجها. ولكن هذه الفكرة جعلتها تنتظر إلى أن تبدأ الحفلة وتختلط

الأصوات في قاعة الاحتفال، ولم يكن الأمر صعباً كما كانت تظن.

وعندما وصلوا إلى غرفة الجلوس، شاهدت ضيوفاً آخرين من الجيرة، بعضهم كان حاضراً الليلة الماضية، ينتظرون، وسرعان ما كانت محاطة بالاصدقاء يمزحون معها.

وهنا وجدت ليلا الفرصة سانحة للهرب، فانسلت خارجة من الغرفة في الوقت المناسب تماماً، حيث أنها رأت السيد بيرسي قادماً من غرفة الطعام.

فركضت صاعدة السلم إلى غرفتها.

ولم تشعر بالإمان، إلا بعد أن اغلقت الباب خلفها.

حدثت نفسها، لو أن بإمكاني فقط أن اتحدث إلى جون ليون، فهو سيخبرني بما علي أن افعل.

فقد كان السيد دنتون باركر وإبنة عمها أفريل يضغطان عليها لكي تقول (نعم).

وسيكون من الصعب عليها جداً ان تتحداهما.

* * *

تأخر عشاء المستخدمين في غرفة مديرة المنزل تلك الليلة بالنظر لكثرة عدد المدعوين.

وأخيراً، عندما انتهى عمل رئيس الخدم، جلسوا جميعاً بنفس النظام السابق.

قالت مديرة المنزل تخاطب الماركيز: «حفلتان في ليلتين متعاقبتين... هذا كثير جداً في رأيي.»

فقال موافقاً: «من المؤكد أن هذا إرهاق للمستخدمين.»

فقالت: «إن البنات عندي لم ينتهين من تنظيف المكان وتنظيمه قبل الساعة الثانية صباحاً، وهذه الليلة لن نفرغ قبل الفجر.»

فقال الماركيز بلطف: «إنها مشقة عليك أنت أيضاً.»

فقالت: «انك متفهم، يا سيد ليون، فقد كان الأمر مختلفاً تماماً عندما كان سيادة اللورد هنا.»

فسألها: «اظنك تفتقدينه.»

فأجابت: «اكثر مما استطيع التعبير عنه، أنا لا أقول إن السيد بيرسي غير كريم، ولكن الأشياء لم تعد كما كانت في الأيام السالفة.» وتنهدت، وعلم الماركيز أن بإمكانها، لو شاءت، ان تقول الكثير.

وابتدأت الأقاويل حول المائدة كالعادة، ولكنه لم يشترك بها.

لقد كان مما بعث التسلية في نفسه عندما علم منذ الليلة الأولى أن احداً منهم لم يكن يستطيع مقاومة الخوض في سيرة امرأة سيئة السلوك.

وتاق إلى جلسة في النادي مع صديقه تشارلس ورجال من طبقته.

وأخيراً، انتهى ذلك العشاء الطويل، فودعهم الماركيز قائلاً إنه يريد أن يتمشى في الحديقة قبل أن تمتلىء بالناس الخارجين من غرفة الاحتفال.

فقالت إحدى الخادمات الخاصات: «كن حذراً، يا سيد ليون، فقد سمعت أن السيد مورتيمر المسكين ألقاه بعض الفتيان المشاكسين الليلة الماضية في مياه النافورة، لقد ابتل بالماء تماماً.»

فهتفت خادم السيد مورتيمر الخاص: «وما أحسن ما كان عليه منظر ثيابه تلك، لقد أمضيت ساعات هذا الصباح في تجفيفها وكيها.»

فقال الماركيز وهو يتوجه نحو الباب: «سأكون حذراً بالتأكيد.»

وكان يأمل أن تكون ليلا عملت بنصيحته، فلا تخرج إلى الحديقة مع أي كان مهما كان الضغط عليها شديداً.

وعندما مر بغرفة المؤونة، رأى جمعاً من الخدم الرجال يحتشدون هناك.

وكان يمكن أن يتابع مروره دون اهتمام بهم، لولا أن سمع واحداً منهم يقول: «لقد وعدني السيد باغز أوغولد بجنيهين.»

فسأله آخر: «اتعني السيد دنتون باركر؟»

«نعم، ماذا تظنه يريد؟»

ولم يكن الماركيز وهو يجتاز الممر، يستمع في الواقع، ولكنه قبل أن يبتعد تماماً عن مجال السمع، جاء الجواب: «إنه يريد مفتاح غرفتها.» فجمد الماركيز في مكانه.

وتبادر إلى ذهنه أن الشيء الذي لم يطلب من ليلا أن تقوم به، هو إقفال غرفتها من الداخل، والآن، إذا كان ما سمعه صحيحاً، فمن غير الممكن أن تتمكن من إقفال الباب.

وعاد أدراجه ببطء، ورأى بوضوح تام، ذلك الخادم الذي كان يتكلم، وهو يحمل في يده المفتاح، وقال له خادم آخر: «كان بإمكانك أن تطلب المزيد، فهي فتاة جميلة وهو غني جداً.»

فقال الذي يحمل المفتاح، مدافعاً: «ولكن مبلغ جنيهين ليس سيئاً.»

ووقف الماركيز في الظل يتساءل عما بإمكانه أن يفعل.

وأخيراً، استقر على رأي، فقال بشكل عفوي: «انتبهوا، فقد انتهى العشاء في غرفة السيدة فيلك.»

وأدرك الخدم أنه يحذرهم، فانطلقوا متفرقين، ذلك أن العشاء إذا كان قد انتهى في غرفة مدبرة المنزل السيدة فيلك، فإن رئيس الخدم لا بد في الممر الآن. وإذا لم يرهم في أماكنهم، فستبدأ المتاعب، وهرول مبتعدين أولئك الذين عليهم أن يكونوا الآن في أماكن عملهم.

أما أولئك الذين كانوا ينتظرون الضيوف في غرفة الطعام، فقد استداروا إلى الاحواض حيث أخذوا في غسل الأطباق.

وكان الخادم الذي يحمل المفتاح على وشك أن يتبع زملاءه عندما أمسك به الماركيز، قائلاً: «سأمنحك ثلاثة جنيهات ثمناً لهذا المفتاح.»

«لقد قال لي السيد دنتون باركر أن أحضره إليه.»

فقال الماركيز: «أعلم ذلك، ولكنني أقدم إليك عرضاً أفضل، وعليك أن تختار.»

فأخرج الماركيز أربعة جنيهات من جيبه وهو يقول: «انك مساوم صعب، ولا شك أنك ستنجح في مستقبلك، مثل سيدك.»

وكان يتكلم ساخراً، ولكن الخادم أخذ الجنيهات من يده ودسها في جيبه وهو يقول: «انك تحب اللهو، وأرجو أن تكون سعيداً.»

شعر الماركيز بالرغبة في ضربه لوقاحته هذه وقال له: «إذا تكلمت عن هذا الأمر، فساحطم رأسك.» وكان صوته، وهو يقول ذلك، منخفضاً متوعداً ما يخيف أقوى الرجال.

فقال الخادم بسرعة: «لن أفعل هذا، يا سيد ليون، أقسم على ذلك.»

قال الماركيز بلهجة تنذر بالشر: «هذا أفضل لك.»

ثم تركه وصعد السلم، وعندما وصل إلى الطابق الأول، رأى إحدى الخادمات تخرج من الغرفة الخاصة. فقالت له: «مرحباً، يا سيد ليون. ما الذي تفعله هنا؟»

فأجاب: «إن لدي رسالة لكي تسلمها الآنسة هورن إلى سيادة اللايدي هورنكليف، كوني فتاة طيبة وارشديني إلى غرفتها.»

فضحكت الخادمة وهي تقول: «إنني دوماً فتاة طيبة مع امثالك.»

كانت في حوالي الأربعين من عمرها، ولكنها كانت قد تمكنت من الاحتفاظ بمظهر الفتاة الخجول.

وأشارت بيدها وهي تقول: «إن غرفتها في نهاية الممر إلى اليمين، إنها هناك فقد رأيتها تصعد منذ فترة.»

ووصل إلى باب ليلا، ثم قرعه بخفة.

ساد الصمت لحظة، ثم قالت: «أدخل.»

وعندما دخل، نظرت إليه بدهشة. وكانت تجلس إلى منضدة عليها ثلاث شمعات، وتخيط ثوب اللايدي هورنكليف الذي كان تمزق الليلة الماضية أثناء الحفلة.

ودخل الماركيز الغرفة.

وحيث أنها لم تكن تتصور قط أنه قد يدخل إلى غرفتها، سألته: «ما الأمر؟ ماذا جرى؟»

فأغلق الباب خلفه، ثم قال وهو يخرج المفتاح من جيبه: «هذا.»

فوضعت ليلا ما بيدها، ثم نهضت واقفة تسأله: «ما هذا؟»

«إنه مفتاح غرفتك.»

فحبست انفاسها: «كيف حصلت عليه... من هو الذي أخذه من الباب؟»

فقال: «هذا هو الموضوع، لا بد أنك تدركين أن في منزل كهذا، يحسن بك أن تقفلي بابك.»

فاتسعت عيناها: «لم أفكر... في ذلك... قط.»

فقال بحدة: «هذا شيء عليك أن تفكري فيه، يا ليلا.»

«ولكنني... لا أفهم.»

«لقد قدم دنتون باركر جنيهين لأحد الخدم لكي يأتيه بهذا المفتاح.»

فشحب وجه ليلا، وهمست: «السيد دنتون باركر؟... هل تعني...؟»

«أعني أنه كان ينوي زيارتك هذا المساء.»

«آه... كلا... كيف يفكر في شيء... فظيع كهذا؟»

«هذا أمر سهل عليه تماماً إذا لم تتمكني من إقفال بابك، ولكن يبدو أن هذه الفكرة لم تخطر لك ببال.»

«طبعاً لم تخطر لي... كيف كان بإمكاني أن أتصور... أو أفكر بأنه يمكن... لأي رجل أن يتصرف بهذا الشكل؟»

«اذن، فكري الآن في ذلك. وفي المستقبل كوني بالغة

الحذر في اقفال بابك عليك، وإذا اختفى المفتاح كما حدث لهذا، إذهبي حالاً إلى مديرة المنزل واطلب غرفة أخرى.»

فشبكت ليلا يديها ببعضهما وهي تقول: «كيف يمكن لأي رجل أن يتصرف... بمثل هذا الشكل الحقير... كما أنه جعل... إبنة عمي أفريل تخبرني بأنه... يعرض علي الزواج... وهي تضغط علي لقبول ذلك...»

كانت كلمات ليلا متقطعة غير مفهومة تقريباً.

فسألها: «يعرض عليك الزواج؟ وماذا عرض عليك أيضاً؟»

«عرض علي منزلاً مسجلاً باسمي، وعشرة آلاف جنيه في المصرف.»

فقال الماركيز متهكماً: «إنه كريم جداً، وعلى كل حال اظنك، في مثل سنك هذا، تريدين خاتم زواج؟»

عند ذلك رأى في عيني ليلا نظرة حائرة، ثم قالت: «ولكنه يطلب الزواج مني.»

فأجاب: «ولكنه متزوج، لقد كنت اتحدث عنه مع خادمه الخاص هذا المساء، فاخبرني بأنه متزوج منذ عشر سنوات ولديه ثلاثة أولاد.»

فوضعت يديها على خديها: «هل تعني... هذا؟ ولكن إبنة عمي أفريل قالت... آه، كيف أمكنها ذلك؟ كيف أمكنها أن تفكر... بأنني أقبل شيئاً كريهاً... شريراً كهذا؟»

فسألها: «ألم تكوني تعلمين أنه كان يعرض عليك أن تكوني صديقته؟»

«كلا، كلا. لم افكر قط في أن من الممكن... لسيد مهذب أن... يعرض شيئاً من هذا القبيل.» وتهدج صوتها: «إنه شرير... كنت أعلم أنه شرير، والآن...»

قال الماركيز بحزم: «والآن ستقفلين الباب على نفسك، وغداً أرجو أن تخبري السيد دنتون برأيك فيه بالضبط.»

ورأى وهو يتكلم، نظرة ذهول في عينيها، كان ذهولاً لم يره في امرأة قط من قبل.

فوضع المفتاح في القفل. وكان على وشك أن يفتح الباب، عندما سمع صوت وقع خطوات في الخارج وأدرك أن من الخطأ أن يراه أحد خارجاً من غرفتها.

ووضع إصبعه على شفتيه لكي لا تتكلم، وفي نفس الوقت، أدار المفتاح في الباب يقفله. وقرع الباب، فجمد الإثنان في مكانهما، لم تتحرك، وتكرر قرع الباب، فنظر الماركيز إلى ليلا، ثم أومأ برأسه، عند ذلك سألت بصوت ضعيف خائف: «من... من هذا؟»

عند ذلك حاول من في الخارج، أن يفتح الباب، ولكن ذلك كان مستحيلاً حيث أنه كان مقفلاً، عند ذلك جاء صوت دنتون باركر يقول: «إفتحي الباب، يا ليلا. إن لدي شيئاً هاماً أريد أن أخبرك به.»

فتقدمت ليلا نحو الماركيز كأنها تحتمي به. وعندما أصبحت بجانبه، قالت: «الوقت متأخر... وأنا سأنام الآن.»

فأجاب دنتون باركر: «لن آخذ من وقتك طويلاً، إن لدي رسالة لك من إبنة عمك.»

«ما هي؟»

«لا يمكنني أن اخبرك بها وأنا واقف في الخارج.»

وأثناء كلامه، كان يحاول فتح الباب مرة أخرى وتصوره الماركيز يشتم بصوت منخفض.

فقالت ليلا: «إني أريد... أن أنام، أخبر إبنة عمي... أفريل... أنني سآتي إليها في الصباح الباكر.»

فأجاب: «أريد أن أراك الآن.»

وشعر الماركيز من الطريقة التي كان الرجل يتحدث بها، أنه ينوي أن يدفع الباب بجسمه.

فاستدار بسرعة ليسند الباب بكتفه. وكان يعلم أن تحريكه يلزمه رجل قوي جداً لكي يقوم به، وكان تقييمه هذا صائباً. ذلك أن دنتون باركر تراجع إلى الخلف، ثم اندفع يضرب الباب بجسمه.

وكان من الممكن أن يكسر الباب فيفتحه، لولا وجود الماركيز.

ورغم أن المفتاح كان قد اهتز في القفل، إلا أن جسم الماركيز القوي منع الباب من أن ينفتح، وأخذ الآن دنتون باركر يشتم بوضوح، وليس بصوت خافت.

وعاد مرة أخرى يحاول الدخول عنوة، ولكن هذه المحاولة الثانية كانت أضعف.

وساد الصمت لحظة، ثم ابتعد ذاهباً، وأنصت الماركيز إلى أن تلاشى وقع خطواته تماماً.

وكذلك أنصتت ليلا، وإذا بها تطلق صرخة مختنقة كحيوان قد وقع في الفخ. ثم صرخت: «لقد انقذتني... لقد جئت إلى هنا في الوقت المناسب... تماماً.»

قالت وهي ترتجف وبصوت يملؤه الرعب: «ربما سيحاول مرة أخرى... فماذا أفعل؟ كيف... أهرب؟ يجب أن أبتعد من هنا.»

وكانت تتكلم وهي ترفع بصرها إليه، ورأى دموعاً في عينيها وهي ترتجف خوفاً.

نظرا إليها وهو يفكر في أنه لم ير امرأة قط من قبل، أجمل منها، رغم مظاهر الخوف عليها، وكانت، في نفس الوقت، بأمس الحاجة إلى الحماية.

فقال برقة: «لا بأس عليك، انه لن يحاول ذلك مرة أخرى، هذه الليلة.»

«ولكن... ما الذي سيحدث غداً... عندما تحاول إبنة عمي أفريل أن تجعلني... أرضى بعرضه؟»

الآن فقط أدركت تماماً ما كانا ينويان توريطها به.

وأخذت تتوسل إليه، قائلة: «أخبرني بما عليّ أن أفعل... أرجوك... أخبرني.»

سكتت فجاة وتعلقت عيناها بعينيه. وجمدت في مكانها ذاهلة، لقد أدركت الآن أنها تحبه... وأنها أحبته منذ أول لحظة رأته فيها، وأنها أصبحت الآن تنتمي إليه... جزءاً منه، سواء أراد هو ذلك أم لا.

وكان الماركيز من ناحيته، قد شعر بأنها تختلف عن كل امرأة عرفها من قبل، وساوره نحوها شعور لم يعرفه تجاه امرأة من قبل. وأدرك من نظراتها أنها تشعر بمثل ما يشعر به.

وبعد ما بدا لهما قرناً من الزمن، أو قد يكون مجرد دقائق أو حتى لحظات، إنتبه إلى أن وجه ليلا قد اكتسب جمالاً

شفافاً، لقد ذهبت الدموع، وتلاشى الخوف، والصدمة، والذعر.

ان الحب، قد حل مكان هذا كله، ومرة أخرى، مر وقت طويل قبل أن يقول بصوت كان غريباً في مسامعه: «يا عزيزتي، ما الذي فعلته بي؟ كيف امكنك أن تكوني بكل هذه الرقة والخوف؟»

فهمست تقول: «إنني.. أحبك، ولكنني لم اظن قط... أن من الممكن أن تحبني.»

مضت لحظة صمت عادا فيها يتبادلان النظرات، قال بعدها: «لا يمكنك البقاء في هذا البيت.»

ومرت لحظة صمت أخرى بدت فيها ليلا وكأنها كانت تحاول أن تتذكر أين هي الآن.

ثم قالت: «هل... تدرك أن عليّ أن... أهرب؟»

فأجاب: «طبعاً أدرك هذا. أحزمي أمتعتك وسنرحل في الحال.»

فاتسعت عيناها، وسألته: «نرحل؟ ولكن عليّ ألاّ أسبب لك أي ضرر... أو أتسبب في فقدانك عملك.»

فابتسم الماركيز وسألها برقة: «هل تفكرين بي حقاً؟»

فقالت: «طبعاً... يجب أن أفكر... فيك. فإذا امكنك فقط ان تخبرني إلى أين يجب أن أذهب فلا يعثر علي... ذلك الرجل.»

فقال: «أعدك بأن ليس في إمكانه ذلك. والآن، إفعلي ما أقوله لك، إحزمي امتعتك.»

وفكر لحظة، ثم سألها: «هل لديك القوة الكافية لحمل حقيبتك؟»

«طبعاً، يمكنني ذلك.»

«إذن، تعالي إلى الاسطبل بعد ارتدائك ملابسك، وسأكون هناك في انتظارك، وسيكون من الأفضل ألا يعلم برحيلنا أحد في المنزل قبل الصباح.»

«وماذا بالنسبة لإبنة عمي أفريل؟»

فقال: «إذا انتابها القلق لأجلك، فهي تستحق ذلك. لم يكن لها الحق في أن تقترح عليك ذلك الأمر...» وأراد أن يقول المزيد ولكنه خاف أن يؤلم ذلك ليلا مرة أخرى، وبدلاً من ذلك، قال لها برقة: «إفعلي ما أقوله لك. دعي كل شيء لي وأعدك بأن كل شيء سيكون على ما يرام.»

وتألقت عيناها كالنجوم. ثم قالت بصوت منخفض يملؤه القلق: «هل أنت... واثق تماماً من أن لا ضرر سيصيبك؟ إن إبنة عمي أفريل لن تعطيك... شهادة خدمة أبداً.»

فقال: «سأتدبر أمري تماماً من دون ذلك. دعي كل هذا القلق على كل شيء، وهيئي أسباب فرارك.»

وهمس يقول برقة زائدة: «أحبك، ياليلا.» واتجه نحو الباب، وعندما فتحه، قال: «اقفلي الباب عندما اغادر، للاحتياط فقط.»

ورأى الخوف في عينيها بينما كانت تجيبه باسمة: «ساكون... سريعة جداً جداً.» وفي الممر، أسرع هو إلى غرفته حيث لم يستغرق منه حزم حاجياته القليلة اكثر من عدة دقائق، كما أنه وضع كل نقوده في جيبه.

ثم نزل من السلم الخلفي متجهاً نحو الاسطبل، وهو يشعر بالقلق من أن يجد وينرايت قد أوى إلى فراشه. ولكنه

مالبث أن شعر بالإرتياح عندما رآه في غرفة المعدات يقرأ في الصحيفة الرياضية.

هتف عندما لاح له الماركيز: «مرحباً يا ليون. لم أكن أتوقع قدومك.»

فقال الماركيز: «كنت آمل أن أجدك.» ودخل الغرفة إلى حيث كان وينرايت ناشراً صحيفته على المنضدة، ثم وضع أمامه ورقتين من فئة العشر جنيهات، وهو يقول: «هذه لك إذا أنت ساعدتني.» ووضع خمسة أوراق أخرى من نفس الفئة إلى جانب وهو يضيف قائلاً: «وهذه ضمان بأنني سأعيد إليك ما سأستعيره منك.»

فنظر إليه وينرايت بدهشة وسأله: «ما هذا؟»

«أريد عربة سفر بحصانين من أفضل ما عندك.»

«وهل تظن حقاً أنني سأدعك تأخذ ذلك؟»

«أحب أن أظن أنك تثق بي، وأقسم لك بأنها ستعود إليك بنفس الحالة التي اخذتها بها، وكما تعلم، من غير المحتمل أبداً أن يشعر السيد بيرسي بغيابها.»

وساد صمت طويل، ثم نظر الماركيز إلى واينريت كان يستعمل قوة سلطته كما اعتاد أثناء الحرب، وأخيراً، قال وينرايت مذعناً: «لا بأس، ياليون. ربما كنت أنا أحمق، ولكنني أثق بك. وسأكون في غاية الدهشة إذا أنت خذلتني.»

فقال الماركيز: «أعدك بألا افعل ذلك. ساعطيك شيك بقيمة ما سأستعيره منك. ولكن الإمضاء عليه لن يكون ليون. ولكن من الأفضل فيما لو حدث لك شيء، أن تعرف عني أقل ما يمكن.»

وفجأة، ضحك وينرايت وقال: «إنني ألمح شيئاً من

الغموض، بالنسبة إليك، ولكن بما أنني أراك مستعجلاً، فلا معنى لنقاشنا الآن.»

وجمع النقود التي كان الماركيز قد وضعها على المنضدة، ودسها في جيبه. ثم رفع صوته ينادي السائسين الذين كانوا في العمل.

وفي الوقت الذي وصلت فيه ليلا إلى الاسطبل، كانت عربة سفر قد شد إليها حصانان مطهمان، جاهزة للتحرك.

كانت العربة جديدة خفيفة لم يمض عليها في الاسطبل سوى ثلاثة أشهر. وحالما رأى الماركيز ليلا، أسرع إليها يأخذ من يدها الحقيبة.

ونظر إليها. وعندما ابتسمت له، تبادر إلى ذهنه أن ليس هناك امرأة اجمل منها، ولا اكثر سعادة، سألته في صوت منخفض: «هل ستأخذني معك... حقاً؟»

فأجاب: «حالا... كل شيء جاهز.»

وساعدها في الصعود إلى العربة التي كانت ذات مقعدين في الأمام.

وكان هنالك أيضاً مقعد في الخلف لجلوس السائس إنما كان فارغاً وكان السقف مكشوفاً بالنظر إلى دفء الجو.

وعندما جلست ليلا في العربة، وضع على ركبتيها دثاراً، ثم استدار إلى الناحية الأخرى حيث صعد إلى مقعد القيادة بجانبها.

ورفع يده يحيي وينرايت وهو يقول: «اشكرك، إنني لن أنسى أبداً ثقتك بي، وسأكتب إليك في وقت آخر قريباً.»

فرد عليه وينرايت باسماً: «وداعاً وبالتوفيق.» وتناول الماركيز اللجام، وسرعان ما كان ينطلق بالعربة نحو الطريق العام.

قالت له: «اظن.. لا بد أنني احلم... وأخاف ان... استيقظ.»

فقال: «إننا، نحن الاثنين، نحلم. وهو حلم يتحقق.»

وكان يدرك، أثناء حديثه، أن هذه هي الحقيقة، فقد وجد شيئاً كان يظن أنه لن يجده أبداً، وكان هذا الشيء يسمى، (الحب).

الفصل السابع

استمر الماركيز في السير قرابة ساعة ونصف. وعندما رأى الطريق قد أصبح ضيقاً ملتوياً، فكر في أن من الأفضل أن يرتاحا بقية الليل، وكانت الساعة الواحدة صباحاً عندما وصلا إلى قرية صغيرة تذكر أنه سبق ومر بها عدة مرات أثناء رحلاته إلى الصيد.

كانت قرية جميلة جداً وفيها خان حسن قائم فوق مروج القرية الخضراء.

وعندما أوقف العربة، سألته ليلا: «لماذا نقف؟»

فأجاب: «لأنني لا أريدك أن تكوني متعبة، وما زال امامنا مسافة طويلة غداً.»

وناولها اللجام، وقال: «أمسكي باللجام بينما أدخل أنا الخان وأرى ما يمكنني عمله.»

وسار نحو الخان الذي كان مقفلاً. دار حول الخان حيث كان يتوقع أن يجد صاحبه نائماً، ثم أيقظه، وقال صاحب الخان بشراسة: «ما الذي تريده...» وعندما رأى الماركيز واقفاً في ضوء القمر، أضاف يقول: «يا سيدي؟»

فقال الماركيز: «إني آسف لإزعاجك، ولكنني مع أختي، ومن الصعب علينا متابعة السير، ولهذا أحب أن نقضي عندك بقية الليل، وسأزيدك الأجرة.»

ولم ينتظر صاحب الخان سماع المزيد، بل ارتدى ثيابه بسرعة، ثم أسرع يهبط السلم، وفي نفس الوقت، كان

الماركيز قد ذهب يتفقد الاسطبل حيث تأكد من وجود مربطين نظيفين للحصانين، وانتبه إلى أن يكون هناك دلوان ممتلئان بماء نظيف.

وكان واثقاً من أن وينرايت لا بد وضع على ظهر العربة كيسي شعير.

وعندما عاد من الاسطبل، كان صاحب الخان في انتظاره.

قال له: «ليس لدينا سوى غرفة واحدة ياسيدي، ولكن فيها أريكة تصلح للنوم.»

فقال الماركيز: «سآخذها، وقد وجدت أن بإمكاني وضع حصاني في اسطبلك.» وعندما خرج صاحب الخان ورأى العربة والحصانين شعر بالهيبة.

وأدخل الماركيز الحصانين إلى الاسطبل، وساعده صاحب الخان على وضع العلف لهما.

وفي نفس الوقت، كانت زوجة صاحب الخان، بعد أن أدركت ما هناك، قد أخذت ليلا إلى الغرفة.

وكانت الغرفة حسنة مزخرفة السقف. وكان فيها نافذتان إحداهما تشرف على المروج الخضراء، والأخرى على الفناء الخلفي للخان، وعلى كل حال، كان هنالك سرير عريض وأريكة.

قالت صاحبة الخان لليلا: «سمعت السيد يقول ان معه أخته، وسمعت زوجي يقول إن لديه غرفة واحدة باقية. ولكن يمكن لأخيك أن ينام على الأريكة، وتأخذي أنت السرير، وسأحضر مزيداً من الأغطية ووسادة أخرى.»

وعندما عادت بهذه الأشياء، سألتها: «أتريدين شيئاً آخر؟»

فأجابت ليلا: «كلا، شكراً، أنا واثقة من أننا سنكون بأتم راحة.»

وعندما خرجت المرأة، دفعت ليلا الأريكة بعيداً عن السرير قدر إمكانها، وعندما نظرت من النافذة، رأت الماركيز مع صاحب الخان في الاسطبل.

وكان هناك فانوس رأت على ضوئه رأس الماركيز وهو يمسد أحد الحصانين.

وعندما انتهيا من الاسطبل، أصر عليه صاحب الخان أن يتناول فنجاناً من الشاي تقبله الماركيز بلهفة. ثم قال إنه يحب أن يأخذ فنجاناً لأخته، فقد كانت رحلتهما طويلة.

فقال صاحب الخان: «أتمنى لو كان لدي شيء آخر أقدمه لكما، ولكن هناك بعض اللحوم الباردة إذا شئت.»

فأجاب الماركيز: «إننا لسنا جائعين. ولكنني مسرور بالشاي ويمكنك إعادة ملء الفنجان.»

وعندما صعد الماركيز إلى الغرفة، كان يحمل في يديه فنجاني شاي، وعندما استطاع أن يفتح باب الغرفة، رأى شمعتين مضاءتين بجانب السرير، ولكن السرير نفسه كان خالياً.

ولكنه مالبث أن رأى ليلا في الناحية الأخرى من الغرفة راقدة على الأريكة، وكان على وشك أن يتحدث إليها عندما رأى عينيها مغمضتين، كانت مستغرقة في النوم.

وضع الفنجانين من يده على منضدة بجانب السرير، ثم اتجه نحوها حيث وقف ينظر إليها.

كان يعلم أنها مرهقة، ليس فقط من الرحلة، وإنما من عملية الهرب نفسها، وبجانب ذلك، كان هنالك الرعب الذي أثاره في نفسها دنتون باركر، وأخيراً، قرر أن يدعها لتنام، ولم يخطر في ذهنه أنه، لأول مرة في حياته، لم يفكر في نفسه، وإنما كان بعيداً عن الأنانية تماماً، وبخفة، استدار متجهاً إلى سريره وقبل أن يطفىء الشمعتين، ألقى نظرة أخيرة على ليلا في آخر الغرفة، ومرة أخرى، سُرّ لحسن حظه على معرفته بها.

* * *

كانت ليلا تحلم بأنها بجانب الماركيز، وأن أشعة الشمس تتخلل غرفتها، وكان العالم ذهبياً رائعاً بشكل لا يمكن أن يكون حقيقة.

وعندما فتحت عينيها، إذا بها تجد الماركيز جالساً على السرير، فقال لها: «أتمنى لو أبقى على هذا الوضع طوال النهار فأحدثك كم أنت حلوة جميلة، ولكن مازال الطريق أمامنا طويلاً.»

قالت بصوت يشوبه النعاس: «لم... لم اسمعك عندما جئت إلى فراشك.»

«لقد كنت مستغرقة في النوم. وكان من كرم أخلاقك أن اخذت الأريكة التي كان المفروض أن آخذها أنا.»

فأجابت: «كلا، كلا بالطبع، فهي صغيرة بالنسبة إلى

حجمك... ولكنني كنت أريد أن أبقى مستيقظة لأطمئن إلى راحتك.»

فقال يغيظها: «ها انك تريدين أن تعتني بي مرة أخرى.»

فأجابت: «هذا... ما أريد أن أقوم به.»

فقال: «سأذهب لأجهز الحصانين، ثم نتناول الافطار قبل المباشرة بالرحلة.»

فابتسمت له، بينما خرج هو من الغرفة حاملاً حقيبته، فقفزت ليلا بسرعة وركضت إلى النافذة، ذلك أنها لم تستطع مقاومة الرغبة في النظر إلى الماركيز وهو يجتاز الفناء إلى الاسطبل.

وبدا لها أن ليس هناك رجل يماثله وسامة وذكاء.

وسألت نفسها بعجب، هل من الممكن حقاً أن يكون... مغرماً بي؟

وعندما استعدت لمتابعة الرحلة، كان الماركيز قد جهز العربة بالحصانين، وبعد أن وجد غلاماً يمسك بهما، جلس إلى مائدة الإفطار في غرفة الجلوس، ولاحظ أن ليلا، بخلاف النساء العصريات، قد تناولت إفطاراً كبيراً.

فقد استمتعت بالبيض واللحم والخبز الطازج المدهون بالزبدة والعسل. وشعر الماركيز بأن صاحب الخان وزوجته كانا يشعران بالفضول نحوهما.

ولكنه تفادى، ببراعة، الرد عن أي سؤال مباشر. ولكن، عندما دفع له أجرة المبيت، كان صاحب الخان من السرور إزاء سخائه بحيث نسي كل شيء آخر.

وما لبثا أن استأنفا رحلتهما في أشعة الشمس، ولكن

عندما اجتاز مسافة طويلة من الطريق الريفي، عند ذلك فقط، سألته ليلا: «إلى أين... نحن ذاهبان؟»

فأجاب بهدوء: «إلى حيث نتزوج.»

فرفعت عينيها تنظر إليه، فرأى فيهما بريق متألق.

وسألته هامسة: «هل... هل تعني ذلك حقاً؟»

فأجاب: «إنني أحبك، وأظنك تحبينني، فماذا ينبغي علينا أن نفعل غير هذا؟»

فقالت: «إنني... إنني أحبك...»

وترددت لحظة، ثم عادت تقول: «هل يمكنك حقاً... ان تعيل زوجة؟»

وقبل أن يجيب، تابعت تقول بصدق: «إنني سأشتغل لأجلك. طبعاً سأشتغل... فانا لا أريد أن أكون عبئاً ثقيلاً عليك... فقد لا تجد من السهل أن تجد عملاً آخر... إذا كانت لديك زوجة.»

فسألها: «ماذا تقترحين علينا إذن أن نفعل؟» كان يريد أن يسمع جوابها، وكان يتساءل عما عسى أن يكون.

فأجابت: «اظن، لو أننا عاقلان، علينا أن ننتظر... إلى أن تجد عملاً... لا يعترضون عليك لأجله، كونك لك زوجة.»

فقال: «ولكن هذا مؤلم جداً لنا نحن الاثنين، إنني أريدك معي الآن، هذه اللحظة دائماً، يا ليلا.»

فقالت: «وهذا.. ما أريده أنا أيضاً، ولكنك كنت من الرقة والشهامة معي... بحيث لم أشأ... أن أراك تتألم... بسببي.»

فقال الماركيز يائساً: «أظن عليك أن تتركي لي كل هذه الأمور، هذا إذا كنت واثقة من أنه لا يهمك الزواج من رجل فقير مثلي.»

فأجابت: «إن الشيء الوحيد المهم، هو أن اكون معك، وسأمسح الأرض، أتسول في الشوارع، أفعل أي شيء... ما دمت معك... زوجة لك.»

ونطقت بالكلمات الأخيرة بصوت خافت، شاعرة بالخجل. عند ذلك، أدرك الماركيز أنه قد أصبح لديه الجواب الآن لتشارلي، فقد قال صديقه ذاك أنه، الماركيز، لن يجد إمرأة تتزوجه لذاته فقط. فهو الآن في منتهى السعادة للعثور على ليلا إلى درجة أراد معها أن يعلن للعالم أجمع أنها تختلف عن أية امرأة أخرى.

فهي قد رغبت فيه كرجل ذو أخلاق حسنة، وليس لأنه ماركيز ثري، ولكن الشخص الوحيد الذي سيعرف القصة الحقيقية، هو تشارلس. أما هو، فقد خسر طلبه المشروط، ولكنه وجد زوجة، ولكنه كان واثقاً، على كل حال، من أن تشارلس سيمنحه العاصفة، الذي ربحه منه هدية الزفاف.

وتابعا المسير، وكما كان الماركيز يحسب، فقد كانا تجاوزا منتصف النهار حين استدارا داخلين من خلال بوابات قصره الحديدية الضخمة المهيبة المتوجة بالذهب، ورأى ليلا تنظر إليها بدهشة.

وعندما تقدما سائرين في الدرب الطويل الذي تحف به أشجار السنديان على الجانبين، بدا عليها وكأن جمال المكان قد أخذ لبها.

وكان الماركيز يعرف تماماً أين يمكنه أن يقف بها ليريها أجمل منظر لقصره ايغلز.

فأوقف الحصانين، ومن ثم استطاعت ليلا أن ترى أمامها القصر الفخم الذي كان شيده أجداد الماركيز في عهد الملكة اليزابيت.

كانت أشعة الشمس تنعكس على زجاج مئة نافذة وكذلك المنحوتات والجرار الضخمة على السطح، التي كانت تبدو كظلال تتصاعد إلى أعلى.

وكان مرج أخضر يمتد نحو بحيرة بيضاوية الشكل عند مدخل القصر، وبينما كانت ليلا تحدق مفتونة، إذا بسرب من الحمائم البيضاء يطير امام القصر، ليستقر في الحديقة.

وكانت أشجار اللوز والماغنوليا قد تفتحت براعمها، وانتظر الماركيز ما ستقوله، وسألته أخيراً: «هل يمكن أن يكون ثمة ما هو اكثر جمالاً؟ من هو صاحب كل هذا؟»

فأجاب: «أنا.»

فضحكت، ثم قالت: «كنا، أنا وأمي، نقول هذا الكلام بالضبط كلما شاهدنا شيئاً جميلاً. قد لا يكون ذلك الشيء ملكنا معاً، ولكن بإمكاننا أن نختزن جماله في اعماقنا، وبهذا يصبح ملكنا... ملكنا دون أن يتمكن أحد من انتزاعه من فكرنا.»

وكانت تتكلم بصوت حالم منخفض مما أثار دهشة الماركيز.

ولم يقل شيئاً، بل تابع السير، عبرا البحيرة فوق الجسر الذي يمتد فوقها، وعندما صعدا نحو الباب الأمامي للقصر، شعرت هي بالتوتر، فقالت: «ربما... ما

كان لك أن... تقترب بهذا الشكل. وربما يظن أصحابه أننا... متطفلون.»

وما أن وصلا إلى الدرجات العالية التي تصعد إلى الباب الأمامي، حتى هرع خادمان يبدو انهما كانا ينتظران وصولهما، إلى حيث فرشا سجادة حمراء على الدرجات تلك، وبرز رئيس الخدم على العتبة. أسرع نحوهما سائس من الاسطبل، واستدارت ليلا تنظر إلى الماركيز متسائلة.

فقال: «لا بأس، يا عزيزتي.»

فحملقت فيه بذهول، بينما نزل هو من العربة، مستديراً حولها ليساعدها على النزول، ومن ثم يمسك بيدها صاعداً بها إلى الباب.

وعندما وصلا، قال رئيس الخدم: «صباح الخير، يا سيدي، ما أجمل أن نرى سيادتك، ولكننا لم نكن نتوقع قدومك.»

أجاب الماركيز: «إننا قادمان من مسافة بعيدة، يانيومان، لهذا أريد غداء بأسرع ما يمكن، وأخبر السيدة ميدوز ان تجهز غرفة الملكة لأجل الآنسة هورن.»

«غرفة الملكة يا سيدي؟»

فأجاب الماركيز: «هذا ما قلته، وأرسل سائساً بعربة ليخبر رجل الدين بأنني أريده هنا الساعة الثانية بعد الظهر.»

«هذا حسن، يا سيدي.»

كان واضحاً أن نيومان قد اصابه الذهول لما سمع، ولكنه كان اكثر تدريباً وتأدباً من أن يدلي بملحوظة.

قاد الماركيز ليلا إلى غرفة كان يستعملها دوماً عندما يكون في القصر وحده.

وكانت تحتوي على مكتب يستعمله للكتابة، كما كان يحتفظ فيها ببعض الكتب التي كان يحب قراءتها، بالرغم من وجود عشرة آلاف كتاب في غرفة المكتبة.

وكان هنالك عدد من الرسوم الرياضية على الجدران، كما كان هنالك أيضاً لوحة كبيرة لأمه معلقة فوق المدفأة تبدو فيها مرتدية ملابس النبلاء الرسمية وعلى رأسها تاج أسرة مونتيفل المرصع بالجواهر فبدت، بكل ذلك رائعة الجمال، وما أن اغلق الباب خلف رئيس الخدم، حتى استدارت ليلا تنظر إلى الماركيز.

وبصوت خافت مليء بالخوف، قالت: «أنا... أنا لا أفهم. لماذا نحن هنا؟... ولماذا يناديك... بـ سيادتك؟»

فأجاب الماركيز: «هذا لأنني كنت أخدعك، يا غاليتي، فأنا في الواقع الماركيز أوف مونتيفل، وهذا هو بيتي.»

جمدت ليلا في مكانها لحظة، وكأنها استحالت إلى حجر، ودهش حين صدر منها صرخة معذبة وهي تقول: «كلا... كلا... لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً.» وابتعدت عنه لتقف عند النافذة وظهرها إليه، فأدرك أنها كانت تبكي، سار إليها وهو يسألها برقة بالغة: «لماذا تبكين؟ هل يهمك أنني لست حوذياً فقيراً؟»

فقالت بصوت متهدج: «لقد ظننت... ظننت أنني... سأصبح زوجتك.»

فأجاب: «وهذا ما ستكونينه، إننا سنتزوج عندما يأتي رجل الدين الساعة الثانية.»

«كلا... كلا بالطبع.»

ولم يكد يسمع ما قالته، حتى سألها: «لماذا تقولين هذا؟»

«لأنك... ما دمت بهذه المكانة... وتعيش في مثل هذا... المنزل الفخم... فليس في امكانك أن... تتزوج فتاة مثلي.»

فسألها: «لِمَ لا؟»

«لأن عليك أن تتزوج... من امرأة في مثل مركزك و... اهميتك.»

فقال: «ليس هناك من هي أكثر أهمية عندي منك، وستكونين عظيمة جداً عندما تصبحين الماركيزة أوف مونتنيغل.»

لقد كان يعتقد على الدوام بأن أية امرأة يعرض عليها الزواج، ستطير من الفرح والبهجة، هذا ما كانت تتظاهر به فلور، بينما في نفس الوقت، كانت تخطط للحصول على زواج افضل، ولكنه لم يتصور قط أن ترفضه فتاة.

قال: «أريد أن أسألك شيئاً، ياليلا، ومن المهم جداً أن تجيبيني بصدق.»

فتمتمت تقول: «انك تعلم أنني... سأفعل ذلك.»

فقال: «هل كنت تعنين ذلك حقاً عندما قلت إنك، إذا تزوجنا، ستكدحين في العمل لتوفير الراحة لنا حتى ولو اضطررت لمسح الأرض؟»

«طبعاً... سأقوم باي شيء... لكي أجعلك سعيداً.»

«ولكنك تجعلينني في منتهى السعادة، إذا كنت أنت هنا لتساعديني في القيام بالأمور الكثيرة المتوجب علي القيام بها.»

«ولكن هناك... نساء كثيرات يمكنهن أن يقمن... بذلك العمل خيراً مني.»

فقال: «إنني أنا الذي أقرر ذلك، وأنا أعلم، يا عزيزتي، انك ستكونين خير زوجة، حتى انني أخاف أن تجعليني اعمل حتى عندما اكون مرتاحاً بالجلوس معك.»

وعندما بدرت منها شبه ضحكة، قال: «كنت اظنك تحبينني.»

«آه، أنا أحبك... طبعاً أنا أحبك. ولكنني أفكر في أمورك.»

«إذا كنت تحبينني حقاً، فعليك أن تتزوجيني، لأنني لن اكون سعيداً من دونك.»

فرفعت نظراتها إليه، وأخذت عيناها تتفحصان وجهه. «هل هذا صحيح حقاً؟... هل تقسم على ذلك؟»

فقال الماركيز: «أقسم على ذلك.»

فقالت: «إذن، فسأحاول، ولكن عليك أن تعلمني في حالة... أخطأت في شيء ما...»

فلم يجب الماركيز. كان واثقاً أنهما قد انصهرا معاً في بوتقة الحب، حتى ان الزواج نفسه لن يمكنه أن يقرب بينهما اكثر من ذلك.

* * *

تناولا الغداء في غرفة الطعام التي أخرس الإعجاب بها ليلا عن أن تنطق بكلمة، وقبل ان تصعد، بعد الانتهاء من الغداء، إلى غرفتها قال لها الماركيز: «لدي شيء أريد أن اخبرك به، اظنه سيسعدك.»

فسألته: «ما هو؟»

«لقد طلبت من سكرتيري أن يرسل عربة لاحضار أخيك ومربيته من حيث يقيمان، إلى هنا.»

فحملقت ليلا فيه وكأنها ظنت أنها لم تسمع جيداً، وتابع هو: «لدي قريب يعيش هنا في الأملاك، ولديه إبنان في سن بيتر تقريباً، وأنا أريدهما أن يحضروا للإقامة في القصر أثناء ذهابنا أنا وانت، إلى شهر العسل.»

وابتسم لها بحب وهو يتابع: «أشعر بأن الأولاد سيستمتعون بركوب جيادي وصيد السمك في البحيرة والقيام بكل الأشياء التي كنت أنا أقوم بها عندما كنت في سنهم.»

ومضت لحظة لم تستطع ليلا فيها النطق، ثم تدفقت الدموع من عينيها تغسل وجنتيها، فسألها الماركيز: «لماذا تبكين يا عزيزتي؟ اتراني قلت شيئاً أساء إليك؟»

فأجابت وهي تشهق بالبكاء: «إنها دموع السعادة... لأنك بالغ الشهامة... والحنان، كيف أمكن لرجل ان يكون بهذا... التعاطف والروعة التي... لا تصدق، كيف بإمكاني أن اخبرك كم أنت مدهش؟»

فابتسم قائلاً: «يمكنك أن تخبريني بذلك فيما بعد، وسأنتظر ذلك على أحر من الجمر. والآن، إصعدي إلى غرفتك واجعلي نفسك أجمل مما أنت، إنني اريد ان تبقى صورة عروسي هذا النهار في خيالي بقية حياتي.»

فقالت: «سأحاول أن... أبدو جميلة... لأجلك ومهما كان شكل وجهي، فإن قلبي هو لك بأكمله.»

فأجاب: «وهذا كل ما أبغيه.» ثم ركضت صاعدة السلم، وفي غرفة الملكة التي كانت تحجز، كالعادة في بيوت النبلاء، للملكة في حالة زيارتها القصر، في تلك الغرفة كانت مديرة المنزل تنتظر ليلا حسب أوامر الماركيز.

وكان ثوبها الموسلين الأبيض البسيط قد كوي أثناء تناولها الغداء، فلبسته ووضعت السيدة ميدوز على رأسها نقاباً من الدانتيل لم يعد معه ثوبها يبدو بسيطاً، بل رائعاً.

وكان هناك تاج صغير من الجواهر مصنوع بشكل زهور برية كان الماركيز اختاره لها لتضعه على رأسها، وتحلت بعقد يناسبه.

وعندما نظرت إلى نفسها في المرآة، لم تكد تعرف نفسها.

هل من الممكن أن تكون هذه هي نفس الفتاة التي كانت تجتهد في الخياطة لكي تستطيع أن تنفق على نفسها في الكوخ؟

وقبل ان تترك الغرفة، أحضر لها خادم باقة من زهور الأوركيد قد تفتحت حديثاً، كما قال، في أحد مستنبتات الماركيز.

وعندما أصبحت ليلا جاهزة للنزول، قالت لها مديرة المنزل: «كم تبدين جميلة يا آنسة، انك السيدة الملائمة التي كنت دوماً أتمنى أن يتزوجها سيادته.»

فقالت ليلا بصوتها الناعم: «شكراً يا سيدتي، كل ما أتمناه هو ألاّ أخيب أملك.»

فأجابت المرأة: «هذا لن يكون.»

فنزلت ليلا السلم ببطء حيث كان الماركيز ينتظرها في الردهة.

كان يبدو بالغ الأناقة بوشاح الفروسية الذي يمتد على صدره. هذا إلى عدد آخر من الأوسمة على سترته أحدهما وسام الشجاعة، ولكن عينيه كانتا ممتلئتين حباً، وكان هذا كل ما يهمها.

وعندما كانا يسيران ببطء في الممر المؤدي إلى قاعة كبيرة خلف القصر، قال لها برقة: «أحبك ياليلا، وهذه هي الطريقة التي كنت دوماً أريد أن أتزوج بها. وهي الهدوء البالغ وفي قاعتي الخاصة وأمام رجل الدين، وأنا وحدي مع المرأة التي أحب.»

وأدرك من ابتسامة ليلا كم اسعدتها كلماته هذه، والتي كانت مليئة بالإخلاص.

ذلك أنه لو كان تزوج من أي امرأة أخرى لكان مرغماً على إقامة عرس كبير في ساحة هانوفر.

وبعد ذلك، حفلة استقبال في فندق كارلتون، حيث تدور الأقاويل والانتقادات لزوجته من النساء المدعوات لأنها ليست على شاكلتهن.

وحدث نفسه قائلاً، هذه هي البداية الحقة لزواج سيكون مختلفاً عن كل ما هو متوقع...

شعرت بأنها محظوظة، ليس لأن الماركيز كان غنياً، ولكن لأنه أحبها. لقد كان فيه كل ما كانت تتمناه في الرجل، وعندما انتهت مراسيم عقد القران، ذهبا إلى غرفة الاستقبال التي لم تكن رأتها من قبل.

وكان في انتظارهما كبار الخدم امثال نيومان من الذين

أمضوا في خدمة الأسرة ثلاثين عاماً فما فوق، وكذلك مديرة المنزل السيدة ميدوز، حيث تناول الجميع الحلوى وقدموا تهانيهم للعروسين.

وألقى الماركيز كلمة قصيرة شكرهم فيها لتمنياتهم الطيبة له ولخدمتهم المخلصة طوال تلك السنوات. وأضاف إلى ذلك أمله في أن يساعدوا زوجته، فتهيأ إلى القول: «لكم جعلتم هذا المكان بيتاً لي منذ ولادتي، وكذلك أريد أن تشعر زوجتي والتي فقدت والديها، بأن هذا بيتها، وكذلك بالنسبة إلى أولادنا طبعاً، والأجيال التي ستأتي بعدنا.»

وأخذ الخدم يهتفون لهما.

واغرورقت عينا السيدة ميدوز بالدموع، وكذلك عينا الطاهية العجوز التي خدمت في القصر منذ كان الماركيز طفلاً.

وأخذ الماركيز بيد ليلا صاعداً بها إلى الطابق الأعلى، تاركاً الخدم يتابعون الاحتفال.

أخذها أولاً إلى غرفة الجلوس الخاصة التي لها باب يفتح إلى غرفتها، من ناحية، وباب آخر إلى غرفته من ناحية أخرى، وكانت غرفة جميلة مليئة بالتحف التي عمل على جمعها أسياد القصر من قبله. ولم يكن لدى ليلا وقت للتفرج على كل ذلك، فقد اخذها الماركيز إلى غرفته حيث كان سرير ضخم ذو أربعة أعمدة قد حفر شعار أسرة مولتيفلز على واجهته.

كان في غرفة الجلوس الخاصة، أزهار متنوعة ولكن ليلا رأت في غرفة الماركيز أزهار الزنابق التي كان أريجها يعطر الجو.

دخل غرفة الجلوس ثم قال: «ها انني أعلم أخيراً. يا حبيبتي انك أصبحت ملكي، ولن يتمكن أحد من أن يأخذك مني، ويمكنني أن أخبرك كم أحبك.»

فرفعت إليه وجهها، ونظرت إليه، وهو يقول: «يا حبيبتي، يا حلوتي، كيف لي بأن اخبرك بمبلغ اهميتك عندي، لم أعرف السعادة الحقيقية في حياتي قط قبل هذه اللحظة.»

قالت بصوت خافت: «إن لدي شيئاً... أحب أن اخبرك به.»

فجمد الماركيز في مكانه، لقد خطر في ذهنه أن لديها ما تود الاعتراف به، ربما هو شيء كانت قد فعلته في الماضي مثل فلور وكل امرأة أخرى عرفها، وشعر بأنه لا يستطيع أن يفتح عينيه على الحقيقة الآن في آخر دقيقة.

كان من قناعته بأنها مختلفة عن غيرها إلى درجة أراد معها أن يتوسل إليها بألا تخبره شيئاً، فهو يفضل أن تحتفظ بذلك سراً لنفسها، ولكنه ما لبث أن أدرك أنه إذا فعل ذلك فسيبقى فضولياً حتى آخر عمره، مما سيكون أسوأ مما لو كان عرف الحقيقة.

سألها: «ما هو؟» وكان في صوته جفاء.

سكتت لحظة، ثم قالت: «إنني أعرف.. أنك ستعتبرني... غبية جداً... وربما هو شيء عليّ ألاّ اخبرك به.»

فسكت منتظراً، شاعراً بأن كل ما حوله قد أصابه الصقيع.

همست: «لقد فكرت... وفكرت... ولكن ليس لدي فكرة عن إدارة شؤون المنزل، واخشى أن افعل ما.. تكرهه مني... ومن ثم... تتوقف عن حبي.»

ونطقت بالكلمات الأخيرة بصوت متهدج، وشعر الماركيز وكأن العالم كله قد غمرته أشعة الشمس، وأغمض عينيه لحظة وكأن الإرتياح الذي شعر به أكبر من أن يستوعبه، ثم قال: «يا حبيبتي، يا جميلتي، يا زوجتي الصغيرة الغالية... اتظنين أنه من الممكن ان اتوقف عن حبك؟ احب ان اطمئنك واقول لك انك جد مخطئة.»

فهمست: «آه... كم أحبك... أحبك.»

«إنك لي الآن، ياليلا، وساقتل أي رجل يتجرأ على اطرائك. وساقتلك أنت أيضاً إذا ظننت يوماً أنك غير مخلصة لي.»

فسألته: «وهل ممكن أن اكون أنا بهذا الشكل بينما أحبك... آه، يالزوجي الرائع، علمني كيف أجعلك... سعيداً.»

لقد كان هذا هو الحب... الحقيقي، الحب الذي يفتش عنه كل الرجال، ولا يظفر به سوى من كان حسن الحظ.

تمـــت

الرجل المزيف

يشعر الماركيز اوف مونتنيغل بألم عميق عندما يعلم أن الفتاة التي يريد أن يتزوجها، والتي كانت اعترفت بحبها له، إنما تنتظر موت دوق لكي تتزوج من ابنه نظراً لأنه سيملك لقباً أرفع.

ويذهب إلى النادي حيث يخبر صديقه اللورد تشارلس كاريغتون بمتاعبه، وكذلك سأله إن كان من الممكن أن تحبه امرأة لأجل نفسه وليس لأجل مركزه.

أجاب اللورد بصراحة بأنه يعتقد أن ذلك صعب جداً، وأن ليس لديه فكرة عما اذا كان الامر يختلف لو انه كان رجلاً عادياً.

أخيراً، اتفقا على أن يتظاهر الماركيز، لمدة اسبوعين، بأنه خادم.

وتدبر الماركيز مع حوذيه الخاص أمر عثوره على عمل حوذي لدى اللايدي هورنكليف.

وكانت هذه امرأة بالغة البخل على مستخدميها، ما تسبب في أن يتعرف الماركيز الى ليلا، ابنة عم زوجها والتي كانت تعمل لديها كمرافقة.